

المدرسة البادرائية في دمشق تأسست سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م

الدكتور محمد سعيد رضا
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة البصرة

(أ) فكرة التأسيس :

كانت الخلافة العباسية تعيش أيامها الأخيرة في عهد الخليفة المستعصم، ١٢١٢/٦٠٩ - ١٢٥٦هـ / ١٢٥٨م^(١) حيث وهنت بسبب هجمات المغول المتكررة على حدودها الشرقية، وانفصال ولاياتها وتصارع امرائها فيما بينهم، وتآمر بعضهم مع الذي كان يهدد السلطة العربية بالسقوط.

في مثل تلك الظروف الغامضة كان الخليفة المستعصم يسعى بجهد ضائع لرأب الصدع والحفاظ على الحد الأدنى من وحدة الخلافة العباسية ممثلة بولاياتها العديدة. لذلك وزع سفراءه في أرجاء المملكة الإسلامية مما كان مدعاة لإرسال نجم الدين البادرائي في مهمات عديدة أشار إليها ابن كثير بقوله (رسول الخلافة إلى ملوك الآفاق في الأمور المهمة واصلاح الأحوال المدهمة)^(٢).

وكانت آخر تلك السفارات سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م لتسوية الخلاف بين امراء

(١) ابن الكازروني (٦١١ - ٦٩٧هـ): مختصر التاريخ تحقيق الدكتور مصطفى جواد - مطبعة الحكومة بغداد ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠ ص ٢٢٦ - ٢٨٠.

(٢) ابن كثير (ت ٧٧٦هـ): البداية والنهاية - مطبعة السعادة - مصر ١٣٨٤/١٣.

الشام ومصر^(٣) وقد استغل رسول الخلافة هذا وجوده المطول في بلاد الشام فأقدم على إنشاء مدرسة في قلب دمشق لتدريس الفقه الشافعي سميت بالبدرائية على غرار معظم مدارس العصر التي كانت تسمى بأسماء منشئها مثل المدرسة التاجية المنسوبة إلى تاج الملك أبي الغنائم^(٤) والنظامية نسبة إلى الوزير نظام الملك^(٥) والشرابية نسبة إلى اقبال الشراي^(٦) في بغداد والمدرسة الظاهرية والعاذلية والنورية والشهابية وغيرها في دمشق^(٧).

وقد شيدت المدرسة البادرائية على درجة من الضخامة وسعة في المساحة^(٨) بحيث اعتبرت من مدارس دمشق الرئيسة والمهمة بالإضافة إلى عمرها المديد في أداء

(٣) ابن كثير/: البداية والنهاية - مطبعة السعادة - مصر - تاريخ بلا - ٣، ١٨٤، البوتيني/أبو الفتح موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ): ذيل مراة الرومان - ط.

أولى - حيدر آباد - الدكن - الهند ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م، ٥٢/١، ابن الصابوني، جمال الدين محمد علي الحموي (ت ٦٨٠هـ): تكملة إكمال الاكمال في الأسباب والأسماء والألقاب - حققه وعلق عليه د. مصطفى جواد. مطبعة المجتمع العلمي العراقي ١٣٥٧هـ/١٩٥٧م ص ٢٨، بن الفوطي الحوادث الجامعة والتجارب النافعة - علق عليه مصطفى جواد. مطبعة الفرات في بغداد ١٣٥١هـ ص ٣٢٣.

(٤) الحموي: ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان - طبعة أولى. القاهرة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م طبع مطبعة السعادة ٨١٠/١.

(٥) ناجي معروف: علماء النظاميات ومدارس المشرق الاسلامي - مطبعة الارشاد بغداد ٧٣ ١٣٦٣هـ/١٩٧٣م ص ١٩ - ٤٠، سعيد نفيسي: بحث بعنوان (المدرسة النظامية في بغداد) ترجمة حسين علي محفوظ - منشور في مجلة المجتمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٤م ج ١ م ٣ ص ١٤٣ - ١٥٨.

(٦) بنيت المدرسة الشرايية ببغداد سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م أنظر ناجي معروف المدارس الشرايية مطبعة الإرشاد - بغداد. طبعة أولى، سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م ص ٢٩ وما بعدها.

(٧) الأربلي: بدر الدين الحسن بن أحمد بن زفر (٧٢٦هـ/١٣٢٦م) مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق برقم ٦٦٩٢ ورقة ١٤٧.

(٨) النعيمي: عبدالقادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ): الدارس في تاريخ المدارس عني بنشرة وتحقيق جعفر الحسيني - مطبعة الترقى - دمشق ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م ٢٠٥/١ - ٢٠٦.

رسالتها العلمية والثقافية حتى جعلها الأربلي على رأس مدارس دمشق الاحدى والتسعون^(٩) ووصفها ابن العماد الحنبلي بالمدرسة الكبيرة المشهورة^(١٠).

وإذا تساءل المرء عن الأسباب التي أدت بالبادراني إلى تأسيس مدرسته على غرار عشرات المدارس التي كانت تختص بتدريس فقه المذهب الواحد دون المذاهب الأخرى... نستطيع أن نفترض جملة أسباب من خلال دراستنا للظروف التي كانت تعيشها دمشق بشكل خاص والخلافة العباسية بشكل عام منها:

١ - إن تأسيس المدرسة البادرانية يعتبر امتداداً لفكرة تأسيس المدرسة النظامية سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م والمدارس الشراعية في بغداد سنة ٦٢٨/١٢٣٠م وواسط^(١١) سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م مثلاً، أو لفكرة تأسيس المدارس بوجه عام: وهو تخريج عدد من المثقفين المؤهلين لتمشية أمور الدولة وتولي مسؤولياتها. لا سيما أن مؤسسها كان من ألع سفراء الخلافة العباسية وأكثر المقربين للخليفة المستعصم بالله العباسي وربما يؤكد ذلك الدوافع السياسية لبناء المدرسة. ولعل البادراني قد تأثر بأنظمة النظامية لأنه كان أحد تلامذتها ثم صار أكبر^(١٢) أساتذتها فاستهوته الرغبة في إنشاء ما يماثلها في هذا الجزء من الوطن العربي الأصيل.

(٩) الأربلي: محاسن دمشق - مخطوط - ورقة ١٤٧.

(١٠) الحنبلي: عبدالحى بن العماد (ت ١٠٨٩هـ) شذرات الذهب في أخبار من ذهب - طبعة مصر ١٣٥١هـ - ٢٦٩/٥، اليافعي: /: مرآة الجنان ١٣٧/٤.

(١١) ناجي معروف/المدارس الشراعية (المدرسة الشراعية بواسط). ص ٢٥٩ - ٣٢٧.

(١٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٧٢/١، الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م): العبر خبر من غير تحقيق: صلاح الدين المنجد - مطبعة حكومة الكويت ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م ٢٢٣/٥، اليافعي وعبدالله بن أسعد بن علي بن سلمان اليمني الملكي (ت ٧٦٨هـ)/ مرآة الجنان وعبرة اليقظان - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - لبنان ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م طبعة ثانية ١٣٧/٤، ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب ٢٦٩/٥، سعيد نفيسي: (المدرسة النظامية في بغداد) ترجمة حسين علي محفوظ - مجلة المجتمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٤م ع ٣. ١٥٥.

٢ - إن انتشار المذهب الشافعي في عهد المماليك جعل المدارس المختصة بتدريس فقه الشافعي تربو على ثلث مجموع مدارس دمشق مجتمعة.

٣ - وقد يعود إلى اندفاع مؤسسها الشخصي وقيمته العلمية وإظهار براعته المذهبية باعتباره كان متضلعا في الفقه الشافعي، وأصوله حيث يقول الذهبي عنه (كان من البارعين في المذهب الشافعي^(١٣)).

٤ - ربما أقدم على بناء مدرسته كأي كريم محتشم لا يروقه الخروج من دمشق وهو محمل بالمنح والهدايا التي لولا مهمته الرسمية لما نالها من الملك الناصر وغيره لذلك أراد أن يعيدها لهم بشكل جميل يخلد بها ذكره ويفيد بها أبناء دمشق وأجيالها.

٥ - ولعل بناء المدرسة جاء تأكيداً لنظرة المواطنة العربية في الوسط العربي ووحدة أقطاره وممالكه.

(٣)

(ب) أصل تسمية البادرائية:

سميت المدرسة البادرائية نسبة إلى مؤسسها نجم الدين البادراني الذي كان ينتسب هو الآخر إلى مسقط رأسه (بادرايا)^(١٤) من أعمال واسط، وهي مدينة

(١٣) الذهبي: العبر ٢٢٣/٥، وانظر أيضاً ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب ٣٦٩/٥، اليافعي: مرآة الجنان ١٣٧/٤.

(١٤) بادريا: يفتح الباء الموحدة والألف وفتح الدال والراء المهملتين أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢٨/٣، أبو الفداء: تقويم البلدان ص ٢٩٤ عبد المؤمن بن عبد الحق: مراصد الاطلاع تحقيق جرينول طبعة ليدن ١١٦/١/١٨٥٢، ابن الأثير: اللباب في تهذيب الانسان نسجة مكتبة المثنى - بغداد ١٠٤/١، السمعاني: الأنساب ١٩/٢، القلقشندي: صبح الأعشى - تحقيق إبراهيم الأبياري طبعة أولى - مطبعة السعادة - مصر ١٣٨٣ هـ/١٩٦٣ ص ١٨٢، وليس نجم الدين البادراني أول من ينتسب من العلماء إلى بادريا بل سبقه هذا اللقب كثيرون منهم.

(١) ظفر بن حمدون بن شداد البادراني (كان حياً سنة ٣٤٧ هـ): أنظر عبد الله أفندي في رياض العلماء وحياض الفضلاء. مخطوط مكتبة أغابزرك الطهراني - النجف م ٣ ص ٥١٥ ورجال العلامة الحلي ٩١/٣.

(بدره) الحالية^(١٥) وقد جاء ذكر بادرايا في كتب السريان بصورة (بيت درايا) وفي التلمود بصورة (بي دراى) لأنها كانت تسمى في العهود السومرية والبابلية (دير) ويكتب بالعلامتين المسمارتين (BAD-AN) وقراءتهما (دور - ايل) أو (دير) التي تعني باللغة الأكديّة الحصن أو البلدة أو المكان المحصن فاسم بدره يتكون من (ب) المخففة من الكلمة الآرامية (بيت) ومن الاسم القديم للمدينة وهو (دير) كما هي الحال في السمي باكسايا وبسمايا وغيرهما من أسماء المدن التي سكنها الآراميون وعرفوها بأسفارهم واتصالاتهم فأدخلوا كلمة بيت على أسمائها القديمة^(١٦).

-
- (٢) يوسف بن سهل البادراني: أنظر السمعاني: الانساب ١٩/٢، الاكمال بتعليقه ٤٠٤/١. إسترادك ابن نقطة ص ١٨٤، معجم البلدان لياقوت ٢٩/٢.
- (٣) أبوالمكارم المبارك بن محمد بن معمر البادراني (ت ٥٢٢هـ) ياقوت: معجم البلدان ٢٩/٢. أبي المحاسن المنهل الصافي (هامش ٢) ١١٧/١.
- (٤) أبوالحسن محمد بن حامد القاضي البادراني ياقوت: معجم البلدان ٢٩/٢.
- (٥) أبو علي جميل بن يوسف بن إسماعيل البادراني ياقوت. معجم البلدان ٢٩/٢ وبخطا ياقوت حين يلقبه بالمداراني = في نفس الصفحة.
- (٦) ظهر الدين أبي التمام كامل بن الفتح بن ثابت البادراني (ت ٣٩٦هـ): ابن الصابوني تكملة إكمال الأكمال ص ٢٦، ياقوت: معجم الأدباء ٢٠٨/٦، الجامع المختصر ٣/٨، الصفدي نكت الهجيان ص ٢٣١، بغية الوعاة ٩ ص ٣٨٢.
- (٧) أبو الوفاء كامل بن أحمد الشافعي البادراني أنظرالذهبي: المشتبه في الرجال - دار إحياء الكتب العربية. طبعة أولى ١٩٦٢ ٤١/١.
- (٨) أبو الحسن بن محمود البادراني: نديم أبي الحسن الأحوازي وكان طبيباً نادراً أنظر غرس النعمة الهفوات النادرة ص ٣٣٢.
- (١٥) بدره - حالياً قضاء في محافظة واسط تقع فوق الدرجة ٣٣ من العرض الشمالي وتحت الدرجة ٤٦ من الطول الشرقي من غرينوش (أنظر مقاله بدره تاريخها وأهميتها الأثرية) بقلم فؤاد سفر المنشور، في مجلة سومر الجزء الأول. المجلد السابع لسنة ١٩٥١ م ص ٥٣ - ٥٧.
- (١٦) أنظر (بدره وجسان) لمستشرق يرمز لإسمه بالحرفين (اه) منشورة في لغة العرب السنة ٩ الجزء ٩ أيلول ١٩٣١ م ص ٦٥١ - ٦٥٩، مجلة سومر الجزء الأول - المجلد السابع سنة ١٩٥١ (نفس المقالة والصفحة).

ويرى البعض أن بادرايا اسم قبيلة سكنت هذه المنطقة في سابق العصور^(١٧). والدير أو بادرايا رغم بعدها عن المراكز المهمة في بلاد بابل كانت مدينة بابلية في حضارتها واتصالاتها وقد كانت آلهتها مقدسة من قبل البابليين القدماء ونالها ما نال المدن البابلية من اعتداءات الفرس حتى يذكر المستشرق (أ هـ)^(١٨): أن كسرى أنو شروان اكتسح هذه المدينة ودمرها ونقل طائفة من سكان مدينة انطاكيا وأسكنهم فيها^(١٩).

وورد اسم هذه المدينة في المراجع العربية القديمة حيث ذكر ابن خردادبه (طسوح بادرايا)^(٢٠) كإحدى الطسايح الخمسة في شرقي دجلة ويقول ياقوت الحموي (بادرايا: يابن الألفين، طسوح بالنهروان وهي بليدة بقرب باكسايا بين البندنيجين ونواحي واسط منها يكون الثمرالقصب اليابس الغاية في الجودة واليبس... ويقال أنها أول قرية جمع منها الحطب لنار ابراهيم عليه السلام)^(٢١).

إذن البادرائية هي التسمية الصحيحة للمدرسة لأنها مشتقة من نسب المؤسس لها... لكن الذي نرومه هنا هو توثيق كلمة البادرائية أمام الأخطاء والتصحيحات اللفظية لكلمة البادراني أو المدرسة (البادرائية) والتي منها البادرانيه والبادرائية والمادرائية وهي تسميات خاطئة ربما جاءت بسبب التشابه أو الإيقاع اللفظي واللغوي بين هذه التسميات رغم أن البادرانيه والمادرائية تسميات لمدن معلومة لها ذكر مستقل في كتب البلدان.

-
- (١٧) مجلة لغة العرب لسنة ٩ الجزء ٩ أيلول ١٩٣١ (نفس المقالة والصفحة) وكذلك نفس المقالة والصفحة في مجلة سومر بنفس الجزء والسنة.
- (١٨) مجلة سومر لسنة ١٩٥١ (بدره - تاريخها - أهميتها الأثرية). ج ١ م ٧ ص ٥٥.
- (١٩) مجلة لغة العرب السنة التاسعة في ١٩٣١ مقالة (بدره وحسان) ج ٩ ص ٦٥١.
- (٢٠) ابن خردادبه: المسالك والممالك - طبعة بريل ١٨٨٩ م ص ١٣، ٧٧ قدامة بن جعفر: نبذة من كتاب الخراج وصناعة الكتاب طبعة بريل ١٨٨٩ م ص ٢٣٥، أبو الفداء / تقويم البلدان ص ٢٩٤، بن عبدالحق: مراصد الاطلاع ١١٦/١.
- (٢١) ياقوت الحموي: معجم البلدان - تصحيح محمد أمين الخانجي - طبعة أولى. القاهرة ١٩٠٦/١٣٢٤ م ٢٨/٢.

وللضرورة نشر بشكل موجز قد لا يتعدى التعريف بكل تسميته من هذه التسميات وهي:

- ١ - الباذرائي والباذرائية: بالذال المعجمة وهي تصحيف للبادرائي والبادرائية^(٢٢).
- ٢ - البادراني والبادرائية: بفتح الباء الموحدة والذال والراء المهملتين وفي آخرها النون، هذه تسمية تنسب إلى قرية من قرى نابين يقال أنها (بادران) وهي من نواحي أصبهان ومنها إبراهيم بن محمد بن عبدالله البادراني الأصبهاني المتوفي في ذي الحجة سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م^(٢٣) وليس المقصود بها البادرانية التي تنتسب إليها مدرستنا موضوعة البحث إلا أن عمر بن مظفر بن الوردی (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) قد وقع في خطأ هذه النسبة حين قال (وصل نجم الدين البادراني رسول الخليفة بالصلح...) وفي قوله (واستجار الناصر داود نجم الدين الباذرائي)^(٢٤) وان هذه السقطات أيضاً لازمت اليافعي في ترجمته لبرهان الدين الغزاري حين قال (وفيها - أي سنة ٧٢٩ هـ توفي مدرس البادرانية)^(٢٥) لكن ابن ثغري يردى ذكره بلفظه الصحيح (البادراني) مرة وبـ (الباذرائي)^(٢٦) مرة أخرى ولعل ذلك كان من خطأ النساخ.

(٢٢) ورد هذا التصحيف في الذهبي: العبر - تحقيق صلاح الدين المنجد ١٣٨١هـ/١٩٦٦م ٢٢٣/٥ و ٢٣١٢، جمال الدين الأسنوي - تحقيق عبدالله الجبوري - بغداد ١٣٩١هـ ٢٧٦/١، ابن قاضي شهبة: تاريخه - مخطوط مصور عن نسخة باريس برقم ٢/٩٩ ورقة ١٣٨ و ١٦٨ و ١٩٢، محمد المجي: خلاصته الأثر في أعيان القرن الحادي عشر دار صادر - بيروت - بلا تاريخ ١٦٦/١، محمد خليل المرادي: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر - مكتبة المثنى - بغداد ١/٤٤، ٢/٩٣، ٣/٢٥٦، ٤/١٣١ و ١٤٢، عبدالرزاق البيطار: حلية البشر - تحقيق محمد بهجة البيطار دمشق ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م ٧٨٦/١.

(٢٣) أنظر تاريخ جليل - مخطوط مصور في المجمع العلمي العراقي برقم ٥٦٤ ٦٧/١ و ٢٩٧/١٥٧ السيكي/طبقات الشافعية الكبرى ٥/٥٩ و ٦٠ و ٧٢ و ٧٣، ٦/٤٥ و ٢٤٨، اليافعي: مرآة الجنان مؤسسة الأعلمي بيروت ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م طبعة ثانية ٤/١٣٧ و ٢٧٩.

(٢٤) تاريخ ابن الوردی ١٧٩/٢ و ١٩٤.

(٢٥) مرآة الجنان ٤/٢٧٩.

(٢٦) جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (٨١٠٢ = ٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - مطبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ٥٧/٧ و ٥٩.

٣ - الماذرائي والماذرائية فهي أحياناً تكتب بالبدال أو الذال المعجمة نسبة إلى مادرايا أو ماذرايا وهي قرية فوق واسط من أعمال فم الصلح مقابل نهر سايس وإليها ينسب أبو علي الحسين بن أحمد بن رستم الماذرائي صاحب خراج المقتدر والمتوفي سنة ٣١٤هـ/٩٢٦م^(٢٧) ويقول ياقوت الحموي (مادرايا بالميم. وليست مادرايا وبادرايا واحد)^(٢٨). ولكن المامقاني يقول في ذكره لأبي محمد عبد الوهاب المادرائي (لم أقف للمادرائي على معنى مناسب إلا أن يكون مصحف البادرائي - المنسوب إلى بادرايا)^(٢٩).

أما التسميات الأخرى كالبادراي في مفتاح الطبقات لشمس الدين الدمشقي الشافعي^(٣٠) والبادرائية في مخطوط محاسن دمشق^(٣١). كلها لا تخرج عن جوهر التسمية وهي البادرائية والبادرائي التي أجمعت على توثيقها أغلب مصادرنا الأولية والتي اعتمدنا عليها في هذا البحث.

(ج) موقع البناء وأوصافه:

كان أصل العمارة للمدرسة داراً تعرف بدار اسامة الجبلي أمير قلعة عجلون وكوكب الذي اعتقله الملك العادل في الكرك وصادر أملاكه ومن جملتها داره هذه أخربها نجم الدين أيوب ثم اشتراها البادرائي سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م بخمسين ألف درهم ليجعل منها مدرسته حيث باشر حالاً في عمارتها بمساعدة الملك الناصر يوسف الذي أطلق له من غيظه جسرين خمسمائة حمل خشب^(٣٢).

(٢٧) الثعالبي: لطائف المعارف ص ٢٣١.

(٢٨) معجم البلدان ٢/٢٩.

(٢٩) النجاشي: أحمد بن علي بن أحمد بن الفياس (٣٧٢ - ٤٥٠هـ): الرجال حاشية الصفحة ١٨٦ من الجزء الثاني.

(٣٠) وهو مختصر الكتاب لفقه الشافعية والحنفية لعماد الدين يعلمي حمزة ورقة ١١ ب.

(٣١) محاسن دمشق - مخطوط - ورقة ١٤٧٨.

(٣٢) العلوي (عبدالباسط بن موسى بن محمد (ت ٩٨١هـ/١٥٧٣م): مختصر تنبيه الطالب

وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس عني بتحقيقه وتعليق حواشيه

- صلاح الدين المتجد دمشق ١٣٦٦هـ/٩٤٧م ص ٣٥.

تقع المدرسة المذكورة على باب الجامع الأموي الشرقي^(٣٣). وكان محلها قديماً يسمى الفسقار^(٣٤) في محلة العمارة الجوانية داخل باب الفراديس والسلامة شمالي الجيرون وشرقي الناصرية الجوانية^(٣٥) لكن اسم المدرسة فيما بعد طغى على اسم المحلة الأصلي فسميت بالبادرائية.

وقد تحدث الكثيرون عن فخامة بناء المدرسة البادرائية التي لا تزال آثارها تدل على روعة تلك المدينة الزاهرة متحدياً حوادث الزمن ومستهزئاً بنبكاته. ومما يدل على عظمة وفخامة البناء ما قاله المؤرخون أمثال عبدالقادر بدران الذي وصفها بكونها (مدرسة كبيرة مهندسة)^(٣٦) واليوني الذي بالغ في وصفها قائلاً (وهي من أحسن مدارس دمشق لا بل أحسنها على الإطلاق)^(٣٧) كما وصفها ابن كثير بفخامة البناء وحسن الهندسة وإن بقايا المبنى القديم الذي يقع اليوم في وسط مدينة دمشق الحالية وفي الزاوية الشرقية الشمالية من أعمدة رواق معبد (المشتري جوبيتر)^(٣٨) يؤكد لنا أقوال السف عنه.

يشكل بناء المدرسة شبه منحرف يشغل من الأرض مساحة تقدر بحوالي (٨١٦) متر مربع وسياجها الخارجي مبني من حجارة رومانية ضخمة ومتنوعة في حجمها يتوسطها باب ضخمة قديم مصنوع من خشب الساج أسكفته قطعة من عمود حجري ضخمة وقديم أيضاً. والباب الخارجي يفضي إلى رواق اقتطع جزء

(٣٣) أبو المحاسن يوسف بن ثعري بردى - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي - تحقيق أحمد يوسف نجاتي - مطبعة دار الكتب العربية - القاهرة ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م ١٧٧/١ هامش ٢.

(٣٤) البوريني: الحسن بن إبراهيم ت ١٠٢٤هـ/١٦١٥م ١/تراجم الأعيان من أنباء الزمان - تحقيق صلاح الدين المنجد - دمشق ١٩٥٩ ص ٩٣.

(٣٥) عبدالقادر بدران (ت ١٣٤٦هـ): مناداة الأطلال ومساطرة الخيال - منشورات المكتب الاسلامي للطباعة والنشر - دمشق ١٣٧٩هـ/١٩٦٠ ص ٨٧.

(٣٦) نفس المصدر ص ٨٨.

(٣٧) البونيني (ت ٧٢٦هـ): ذيل مرآة الزمان - حيدر آباد الدكن - الهند ١٣٧٤هـ ج ١ الطبعة الأولى ٧٢/١.

(٣٨) ابن كثير (ت ٧٧٦هـ): البداية والنهاية - مطبعة السعادة - مصر ١٩٦/١٣.

منه وحول إلى دار للسكن حالياً ويتصل بالرواق مسلك طوله (٥,٥) متر وعرضه (٢,٥) متر يؤدي إلى صحن المدرسة عن طريق باب أيوي يقع بجانبه غرفة فيها ضريح ينسب إليه البعض خطأ إلى مؤسس المدرسة^(٣٩). وصحن المدرسة مستطيل واسع مساحته (١٨,٥ × ١٢,٥) متر مربع يتوسطه مiazza كبيرة مساحتها (٥ × ٧) متر مربع وأرضية المدرسة مفروشة بحجارة بيضاء وسوداء مصفوفة بشكل مزخرف جميل وفي الجهتين الشرقية والغربية منه غرف سفلية وعلوية مساحة الواحدة منها (٣,٧٥ × ٢,٥) متر مربع يسكنها طلبة المدرسة والمقيمون فيها. أما في الزاوية الشمالية الشرقية من المدرسة يقع بيت مدرستها بمساحة قدرها (٧ × ٧,٥) متر مربع الذي تميز بوجود مiazza ثمينة صغيرة في وسطه وفي الشمال من الصحن ايوان للتدريس جميل مساحته (٥,٢٥ × ٥) متر مربع بارتفاع شاهق، وفي جنوب الصحن مسطبة من الحجر أمامها ثلاثة أبواب ضخمة تؤدي إلى مسجد المدرسة التي مساحته (١٣ × ٧,٥) متر مربع وليس في المسجد شيء يذكر سوى بعض الألواح القاشانية فوق المحراب كتب عليها (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) بخط كوفي حسن^(٤٠) وقد أزال معالمة الترميمات غير الفنية. التي أجرت الأوقاف على المدرسة في الستينات من هذا القرن.

أما المحراب والمنبر عاديان. وفي المسجد محراب ثانٍ غربي المنبر، ربما أنشأ متأخراً بعد أن أخذت المدرسة تدرس فقه أكثر من مذهب خاصة عندما تولت نظارتها عائلة الشطي، ويرى الدهمان أن ذلك قد نشأ في العهد العثماني من قبل بعض المصلين بقصد الهروب عن أداء الخدمة العسكرية وملاحقة السلطة العثمانية له بوجوب الالتحاق في جيشها^(٤١).

(٣٩) توفي نجم الدين البادرائي في مستهل ذي الحجة سنة ٦٥٥هـ ودفن في مقبرة الشونيزية ببغداد أنظر ابن كثير: البداية والنهاية ١٩٦/٣، ابن الصابوني/تكملة إكمال الأكمال ص ٢٧، ابن الفضل عبدالرزاق بن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة - تصحيح وتعليق مصطفى جواد - مطبعة الفرات - بغداد - ١٣٥١هـ ص ٣٢٣.

(٤٠) محمد أسعد طلس: ذيل ثمار المقاصد في ذكر المساجد - بيروت ١٩٤٣م ص ١٩٦.

(٤١) المقابلة الشخصية للأستاذ محمد أحمد الدهان في داره الكائنة في حي الرمانة بدمشق مساء يوم الثلاثاء الموافق ١٩٨٠/٧/٢٢.

وللمدرسة منارة من خشب مربعة حديثة اقيمت فوق الباب الرئيس وقد أخفت الترميمات الحديثة والعادية كثيراً من مخلفاتها الأثرية والقديمة بشكل عام بحيث لم يبق من آثار البناء الأيوبي القديم إلا البابان والايوان الشمالي والصحن والبركة.

هذا ويلتصق بمسجد المدرسة حديقة طولها ١٥,٥ م تشكل امتداداً للبنية، وربما اقتطعت عن بناء المدرسة في فترة من الزمن لا سيما وأن البوريني يؤكد لنا تفشي حالات التجاوز على أبنية المدارس في نهاية القرن العاشر الهجري وذلك باقتطاع بعض أقسامها متخذين منها محالاً للسكن أو لغير ذلك^(٤٢).

(د) نظامها وأوجه الصرف :

اقيم بافتتاح المدرسة احتفال مهيب حضره السلطان الناصر يوسف الأصغر الأيوبي وواقف المدرسة وكثير من أعيان دمشق. وقد تلي فيه نص وقفية الواقف التي تشمل على نظام المدرسة والقوانين المسيرة لأموالها ومواردها المالية وهي ما كانت تسمى في مصطلح ذلك العصر بـ(الشروط) وقد أشار ابن كثير والكارزوني والمقرئزي وغيرهم إلى بعض جوانب من الوقفية وشروطها وهي :

١ - أن يكون لها مدرس واحد ينفرد للتدريس فيها حيث يذكر ابن كثير ذلك بقوله (إن واقفها أوقفها على المقيمين بها ممن كان أعزب وإن لا يكون الفقيه المقيم بها ساكناً في غيرها من المدارس وأراد بهذين الشرطين توفير خاطر الفقيه وجمعة على طلب العلم...) ^(٤٣) ويضيف العلموي أنه (شرط على المقيم بها عدم التزويج) ^(٤٤). كما خصص معيدان ^(٤٥) يساعدان مدرستها وينوبان عنه في

(٤٢) البوريني: تراجم الأعيان ٥٥/١.

(٤٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/١٩٧، عبد القادر النعيمي (ت ٩٢٧هـ) الدارس في تاريخ المدارس - تحقيق جعفر الحسني - مطبعة الترقى دمشق ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م ص ٢٠٦.

(٤٤) العلموي: مختصر تنبيه الدارس ص ٣٥ نقلاً عن قاضي شهية في تاريخه.

(٤٥) البوريني: المصدر السابق ٧١/١.

بعض الأحيان مع ناظر^(٤٦) يقوم بأمر إدارتها وتولي تدبير الخدمات فيها بالإضافة إلى غيره من العاملين.

٢ - قيدت (الشروط) الجنس الذي يلتقى الدروس فيها، حيث جعلت منها مدرسة للذكور دون الاناث بل حذرت النساء من دخولها وبهذا الصدد ذكر أبو اسحاق برهان الدين إبراهيم بن تاج الدين الفزاري مدرستها وابن مدرستها أنه: حضر الواقف في أول يوم درس بها وحضر عنده السلطان الناصر وقراء كتاب الوقف وفيه (لا تدخلها امرأة، فقال السلطان، ولا صبي فقال الواقف يا مولانا ربنا لا يضرب بعصاتين، فكان إذا ذكر هذه الحكاية تبسم عندها)^(٤٧).

٣ - تضمنت الوقفية شروط الصرف فيها، حيث كانت موارد المدرسة المالية تشكل أهمية كبيرة في دعم رسالتها العلمية وضمان استمراريتها وبقائها. وتؤكد مصادرنا التاريخية على أن مواردنا حتى العهد العثماني كانت من الأوقاف التي أوقفها مؤسسها البادرائي. ومع جهلنا بمقدار المبالغ التي أوقفت عليها المدرسة، وهل كانت شهرية؟ أو سنوية؟ إلا أن اليونيني يذكر (وجعلها محصورة على عدد معلوم وعين مقدار ما يصرف إلى كل نفر منهم)^(٤٨).

ويفهم من هذا النص أنه كان لكل نفر من اشتغلوا في المدرسة أرزاق درارة معلومة وثابتة ولعل هذه الرواتب أو الأرزاق كانت تتدرج حسب أهمية العضو ومركزه العلمي في المدرسة، ولا بد أنه كان للمدرسة قوائم بهذه المرتبات. ويتضح أنها كانت ذات نسب جيدة، ويؤكد ذلك رواية ابن كثير الذي يتحدث عن أوقاف المدرسة بقوله (وقف البادرائي على هذه المدرسة أوقافاً حسنة ودراة)^(٤٩).

(٤٦) البوريني: ذيل مرآة الزمان ٧٢/١.

(٤٧) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/١٩٦ - ١٩٧.

(٤٨) البونيني: المصدر السابق ٧١/١.

(٤٩) ابن كثير: المصدر السابق ١٣/١٩٦، البونيني: ذيل مرآة الزمان.

٧٢/١، النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢٠٧/١، ابن الفوطي الحوادث الجامعة ص ٣٢٣.

ومن المؤكد أنها لم تكن تشمل فقط رواتب العاملين فيها وأرزاقهم بل كانت تغطي ما تحتاجه من ترميمات وأثاث ومصادر الكتب فيها إلى غير ذلك بالإضافة إلى أرزاق طلبتها وكسوتهم ولو وقفنا على (الشروط) لكننا قد استفدنا كثيراً من المعلومات التفصيلية التي أوردتها هذه الشروط وما تضمنته الوثيقة من بنود مالية كانت تغطي نفقات المدرسة كاملة، خاصة وأن هذه الأوقاف كانت غنية بإيراداتها التي غطت جميع تلك النفقات.

(هـ) هيئة المدرسة:

المدرسون:

لقد ذكرت المصادر التاريخية أن المدرسة البادرثية كان لها مدرس واحد مقيم فيها يتقاضى راتبه من أوقافها وفق الشروط التي تؤهله لهذه المهمة كالعزوية ومقدرته العلمية وسمعته الحسنة وأخلاقه الرفيعة بالإضافة إلى علو كعبه في الفقه الشافعي وأصوله. وهناك جملة من المدرسين الذين حظوا بمرتبة التدريس في البادرثية ومنهم:

١ - البادرثي (٥٩٤ - ٦٥٥ هـ / ١١٩٧ - ١٢٥٧ م):

مؤسس المدرسة ومدرسها الأول، نجم الدين أبو محمد عبدالله بن أبي الوفاء محمد بن الحسن الشافعي الفرضي (٥٩٤ - ٦٥٥ هـ) تلميذ عبدالعزيز بن منينا (ت ٦١٢ هـ) وأبي منصور الرزاز (ت ٦١٦ هـ)^(٥٠) البغدادين والمجاز للرواية من قبل المستعصم بالله العباسي^(٥١) (٦٠٩ - ٦٥٦ هـ / ١٢١٢ - ١٢٥٨ م) الذي عينه

(٥٠) السيكي: طبقات الشافعية الكبرى طبعة أولى - المطبعة الحسينية - مصر ٥٩/٥.

(٥٢) الذهبي (شمس الدين ٦٧٣ - ٧٤٨ هـ): دول الاسلام - الهيئة المصرية العامة للكتاب تحقيق فهد محمد شلتوت ١٩٧٤ م ١٥٩/٢ العبر ٢٢٣/٥، ظهير الدين الكازروني (٦١ - ٦٩٧ هـ): مختصر التاريخ - تحقيق مصطفى جواد - مطبعة الحكومة - بغداد ١٩٧١/١٣٩٠ ص ٢٦٤، العلمي: مختصر تنبيه الطالب ص ٣٥، السمعاني عبدالكريم (ت ١١٦٦/٥٦٢ م) طبعة أولى - مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن - الهند ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م ١٩/٢، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٢٦٩/٥ السيكي: طبقات الشافعية الكبرى ٣١/٥، النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢٠٦ ٢٠٥/١ الأسنوي،

قاضي قضاة بغداد سنة ٦٥٥ هـ ترجم له الكثيرون^(٥٢) من أصحاب التراجم وكتب الطبقات وقد وصفوه بالبراعة في الفقه الشافعي حتى بلغ الرياسة وبالمعرفة في الفروض والاصول حتى كُنِيَ بالفرضي وبالقدرة على التحدث والرواية لأنه حدث في حلب ودمشق ومصر وبغداد، واستفاد بسماعة الكثيرين في تلك البلدان. وخول بمنح الاجازة في الاملاء لبعضهم أمثال: عز الدين أبو اسحاق إبراهيم بن الشريف نور الدين القرشي الهاشمي العلوي الاسكندري الشافعي المولود سنة ٦٣٨ هـ/١٢٤٠ م. وهبة الله بن عبدالرحيم الجهني^(٥٤). وناظر فطاحل العلماء وأجاد في المناظرة كما حصل له مع تاج الدين بن رضي الدين بن عماد الدين صاحب التعجيز في مختصر الوجيز في مدينة الموصل سنة ٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م وبذلك كان (العلامة القدوة) كما يقول اليافعي^(٥٦) وقد رشحته كفاءته العلمية من قبل ليحتل الرّقم السابع والثلاثين في تسلسل علماء نظامية بغداد سنة ٦٣٩ هـ/١٢٤١ م كما يعتبره سعيد نفيسي على رأس العلماء الذين تتلمذوا في المدرسة نفسها^(٥٧). وبذلك لا نستبعد كون البادراني حاول أن يجعل مدرسته مثلاً لنظامية بغداد الشافعية.

٢ - جمال الدين البادراني (. . . - ٦٦٧ هـ) :

عبدالرحمن بن عبدالله بن محمد بن الحسن بن عثمان البادراني البغدادي الدمشقي، تولى التدريس البادرانية بعد وفاة أبيه ولازمها حتى وفاته سنة

جمال الدين ت ٧٧٢ هـ طبقات الشافعية. تحقيق عبدالله الجبوري بغداد ١٣٩١ هـ - ٢٢٧، ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ٣٢٢، ابن كثير: البداية والنهاية ١٨٤/١٣، البوني: ذيل مرآة الزمان ٧٠/١ - ٧٢.

- (٥١) الذهبي: العبر ٢٣٠/٥.
- (٥٣) تاريخ جليل مخطوط المجمع العلمي العراقي ١١٤/١.
- (٥٤) السيكي: طبقات الشافعية الكبرى ٢٤٨/٦ و ٢٤٩.
- (٥٥) المصدر نفسه ٧٢/٥.
- (٥٦) اليافعي: مرآة الجنان ١٣٧/٤.
- (٥٧) سعيد نفيسي مقالة (المدرسة النظامية في بغداد) ترجمة حسن محفوظ.

٦٦٧هـ/١٢٦٨م حيث دفن في سفح جبل قاسيون وقد قال عنه النعمي (كان رئيساً حسن الأخلاق)^(٥٨).

٣ - تاج الدين الفركاح (٦٢٤ - ٦٩٠هـ):

أبو محمد عبد الرحمن بن ابراهيم بن ضياء بن سباع الغزالي الدمشقي الشافعي سمع شيوخ عصره. وبرع في المذهب منذ شبابه وكتب في الفتوى التي كانت تأتيه من الشام وبقية الأقطار... وانتفع به جم غفير وتخرج عليه جماعة من القضاة والمدرسين والمفتين وبذلك يقول النعمي (معظم قضاة دمشق وما حولها وقضاة الأطراف تلامذته^(٥٩)) وعرف بتصانيفه الكثيرة المفيدة التي تدل على محلة من العلم وتبحره فيه التي منها الأقلید لدرر التقليد في شرح التنبيه للشيرازي وشرح التعجيز ومختصر الوجيز للموصلي في الفروع وشرح الورقات لإمام الحرمين في الاصول وكشف القناع في حل السماع ونار القبس بذات الغلس في مشايخ الصوفية ونهج الذريعة إلى علم الشريعة وغير ذلك^(٦٠) حتى قال عنه الذهبي (فقيه الشام درس وناظر وصنف وانتهت إليه رئاسة المذهب وكان من أذكاء العالم ومن بلغ رتبة الاجتهاد ومحاسنه كثيرة، وهو أجل ممن ينسب عليه مثلي)^(٦١). وقد انفرد للتدريس في البادرية ولم يكن في يده سواها إلا ماله على المصالح ونال تمجيد المؤرخين والفقهاء أمثال السيكي وابن عماد الحنبلي والأسنوي والياضي والبغدادى والنعمي^(٦٢) وغيرهم كثيرون.

(٥٨) المنشور في مجلة المجتمع العلمي العراقي ١٩٥٤م ج ١ ص ٣١٥ - ١٥٨.

(٥٨) وجعل النعمي وفاته سنة ٦٧٧هـ (٢٠٧/١) وهذا يتعارض مع كون كمال الدين الأربلي إستملم التدريس منه سنة ٦٧٠هـ.

(٥٩) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢٠٨/١، الحنبلي: شذرات الذهب ٤١٣/٥.

(٦٠) السيكي: طبقات الشافعية ٦١/٥، الأسنوي/طبقات الشافعية ٢٨٨/٢، البغدادى (إسماعيل باشا): هدية العارفين. طبعة الثالثة الأوفست طهران سنة ١٣٨٧هـ ص ٥٢٥/١، الياضي: مرآة الجنان ٢١٨/٤، حاجي خليفة/كشف الظنون عن أساء الكتب والفنون. طبعة الأوفست ٤١٨/١.

(٦١) الذهبي: العبر ٣٦٧/٥.

(٦٢) السيكي: طبقات الشافعية ٦٠/٥ - ٦١، الأسنوي: طبقات الشافعية ٢٨٨/٢، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤١٣/٥، الياضي: مرآة الجنان ٢١٨/٤، البغدادى هدية العارفين ٥٢٥/١، النعمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢٠٨/١.

٤ - برهان الدين بن الفركاح (٦٦٠ - ٧٢٩هـ):

أبو اسحاق إبراهيم بن عبدالرحمن ضياء الدين بن سباع الغزاري الشافعي الصعيدي الأصل الدمشقي المولد والدار والوفاة^(٦٣). تتلمذ في صغره على كبار العلماء والمحدثين والفقهاء فقرأ الفقه والأصول والمنطق والنحو^(٦٤). وبرع في الحديث^(٦٥) كان يعيد في حلقة والده في البادرائية وخلفه في التدريس بها وظل معترفاً بمهنته هذه حتى امتنع مزاوله قضاء الشام ورفض أمراً بتوليته للخطابة في مصر في ثاني عشر ذي العقدة سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م حيث أثر البقاء على تدريس البادرائية حين بلغه أنها طلبت لتؤخذ منه علماً بأن المرسوم السلطاني أشار إلى قابلياته العلمية العالمية ولكفائته جاء فيه (لعلمنا بأهليته وكفائته على إلغاء الأمر وكتب له توقيعه بإعادة مدرسته إليه في ذي الحجة من العام نفسه^(٦٦)).

وقد برع في التدريس وأجاد حتى وصفه أبو المحاسن بقوله (وانتهى إليه إتقان غوامض مذهبه... وكان عذب العبارة طلق اللسان كثير الاستحضار إلى الغاية، طويل الدروس... يكاد يقول في مسائل الرافي هذه المسألة في المجلد الفلاني في الكراس الفلاني في الصفحة الفلانية لأنه دربه وأدمن مطالعته، وفرع من (الوسيط) دروساً ألقاها... وفيه طولة روح على تفهيم الطالب...^(٦٧)).

كما بلغ درجة الاجتهاد والأفتاء والاجازة فيقول السبكي (وأجاز لنا ستة ٧٢٨هـ)^(٦٨) ويقول اليافعي (وتخرج له - من البادرائية - أئمة)^(٦٩) وتفقه عليه

(٦٣) أبو المحاسن: المنهل الصافي - طبعة مصر ١٣٧٥هـ ٨٠/١.

(٦٤) المصدر نفسه والصفحة، السبكي: طبقات الشافعية ٤٥/٦، اليافعي مرآة الجنان ٢٧٩/٤.

(٦٥) الأسنوي: طبقات الشافعية ٢/٢٩٠، اليافعي/مرآة الجنان ٢٧٩/٤، السبكي طبقات الشافعية الكبرى ٤٥/٦.

(٦٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدرس ٢٠٨/١.

(٦٧) أبو المحاسن: المنهل الصافي ٨١/١.

(٦٨) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٤٥/١.

(٦٩) اليافعي: مرآة الجنان ٢٧٩/٤.

جهور كبير من العلماء، منهم محمد بن حسن الحارثي الدمشقي المعروف بشمس الدين بن قاضي الزيداني^(٧٠) ومحمد بن عيسى القيسي الدمشقي المعروف ببدر الدين بن مكثوم أحد فضلاء الشافعية^(٧١)، ومحمد بن أحمد بن عبد الرحمن^(٧٢) وعباس عبد المؤمن قاضي حب عسل^(٧٣) وغيرهم. وعرف برهان الدين بتصانيفه وتأليفه العديدة والمتنوعة التي يصعب عصرها ومنها على سبيل المثال: الأعلام بفضائل الشام، حل القناع في حل السماع الرخصة العميمة في أحكام الغنيمة ورسالة في مسائل الخلع وشرح الألفية لابن مالك وشرح منتهى السؤال والأمل في الأصول لابن الحاجب والفتاوي فضائل العشرة المبشري، والمناائح لطالب الصيد والذبائح والوسيط وتعليقه على التنبيه في الفقه لأبي اسحاق الشيرازي في ست مجلدات ضممتها شرحاً حافلاً وغير^(٧٤) ذلك وقد توفي في منزله بالمدرسة البادرية في جمادي الأولى سنة ١٣٢٨هـ/٧٢٩م عن عمر يناهز السبعين وكان لوفاته وقع محزن في نفوس أهل دمشق التي صلت عليه صلاة الجمعة وطافت بجثمانه شوارع المدينة وأزقتها ثم دفن بجوار قبر أبيه بمقبرة الباب الصغير^(٧٥).

٥ - ابن جهيل (٦٧٠ - ٧٣٣هـ):

أبو العباس أحمد بن يحيى بن إسماعيل بن طاهر بن نصر بن جهيل الكلابي الشافعي

(٧٠) عاش قاضي الزيداني في الفترة (٦٨٨ - ٧٧٦هـ) نظر عنه ابن حجر القسطلاني (٧٧٣ - ٨٥٢هـ) أنباء الغمر بأبناء العمر - تحقيق حسن حيشي. القاهرة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ٩٠/١ - ٩١.

(٧١) ابن كلثوم عاش (٧٠٠ - ٧٧٦هـ) نفس المصدر ٩٦/١.

(٧٢) محمد بن أحمد ولد سنة (٧٠٠هـ) نفس المصدر ١١٩/١، ابن حجر.

القسطلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة - مطبعة المدني القاهرة ١٩٦٦/٣٨٨٧، الحنبلي: شذرات الذهب ١٦٣/٦.

(٧٣) قاضي حب عسال (٧٢٠ - ٧٨٤هـ) نفس المصدر ٢٦٦/١.

(٧٤) البغدادي: هداية العارفين ١٤/١، الأسنوي: طبقات الشافعية ٢٩٠/٢.

(٧٥) تاريخ جليل مخطوط المجمع العلمي العراقي ١٥٧/١، وانظر في ترجمة الدرر الكامنة ٣٥/١، تاريخ ابن الوردي لمعز بن مظفر بن الوردي ٢٩/٢، ابن كثير: البداية والنهاية، ١٤٦/١٤، الذهبي: دول الاسلام ٢٣٧/٢.

الخلبي الأصل الدمشقي الموطن مفتي المسلمين^(٧٦) وتفقه على الكثيرين من علماء عصره^(٧٧)، وقد أشار الأسنوي إلى كفايته العلمية بقوله (كان فقيهاً بارعاً سمع وحدث وأفقي وقرأ...) ^(٧٨) زاول التدريس في المدرسة الصلاحية بالقدس وولي مشيخة الطاهرية ثم نقل إلى التدريس في المدرسة البادرية حيث استمر فيها إلى أن مات بدمشق عصر يوم الخميس التاسع من جمادي الآخرة سنة ١٧٣٣هـ/١٣٣٢م ودفن بمقابر^(٧٩) الصوفية. وقال ابن كثير (ولم يأخذ معلوماً من واحد منها)^(٨٠) وهو يقصد بذلك أنه لم يأخذ أجراً على تدريسه فيها، ومن أبرز تلامذته الحافظ علم الدين البرزالي^(٨١) والياضي^(٨٢) صاحب كتاب مرآة الجنان، وله تأليف وتصانيف عديدة ومفيدة منها رسالة في الرد على ابن تيمية في نحو كراسين والجهة من مقولات الحشوية والمجسمة^(٨٣).

٦ - كمال الدين ابن الشيرازي (٦٧٠ - ٧٣٦هـ):

أبو القاسم أحمد بن الصدر عماد الدين محمد بن محمد بن الشيرازي سمع من جماعة وحفظ من مختصر المزني^(٨٤)، وتفقه على الشيخين تاج الدين الغزاري وزين

-
- (٧٦) الياضي: مرآة الجنان ٢٨٨/٤، الذهبي: دول الاسلام ٢٤٠/٢. الأسنوي. طبقات الشافعية ٣٩١/١، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣٣/١٤، ابن حجر العسقلاني الدرر الكامنة لابن حجر ٣٥٠/١، السيكي: طبقات الشافعية ١٨١/٥.
- (٧٧) أنظر الياضي: مرآة الجنان ٢٨٨/٤، النعمي: الدارس ٢١١/١.
- (٧٨) طبقات الشافعية ٣٩١/١.
- (٧٩) الياضي: مرآة الجنان ٢٨٨/٤، الأسنوي: طبقات الشافعية ٣٩١/١، الذهبي: دول الاسلام ٢٤٠/٢، النعمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢١١/١.
- (٨٠) البداية والنهاية ١٤/١٦٣.
- (٨١) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢١١/١.
- (٨٢) ٢٨٨/٤.
- (٨٣) السيكي: طبقات الشافعية الكبرى ٢٨١/٥ و ٢٨٢، الأسنوي: طبقات الشافعية ٣٩١/١.
- (٨٤) إسماعيل بن يحيى المزني (١٧٥ - ٢٦٤) صاحب الإمام الشافعي - أنظر النعمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢٠٩/١.

الدين الفارقي وقرأ الأصول على الشيخ صفى الدين الهندي وعرفه النعمي بـ (الصدر الكبير العالم)^(٨٥) واختبر لمهنته التدريس في المدرسة الشامية البرانية والناصرية الجوانية وكان تدرسه في المدرسة البادرية لمدة يسيرة حيث توفي في ١٣ آخر سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م ودفن بسفح جبل قاسيون^(٨٦).

٧ - القاضي علاء الدين الزرعي:

علاء الدين علي بن شريف بن يوسف ويعرف بابن الوحيد الزرعي درس في البادرية نيابة عن مدرستها ابن جهيل^(٨٧) في ١٥ رجب من عام ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م. ثم ولي تدريسها أصالة سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م،^(٨٨) وحضر دروسه القضاة والفقهاء وغيرهم^(٨٩). وهي بلا شك تدلل على قيمة المحاضرات التي كانت تلقى في المدرسة البادرية كما توضح لنا مكانة أساتذتها ومنزلتهم الاجتماعية والعلمية أيضاً.

٨ - جمال الدين الشريشي الثاني (٦٩٤ - ٧٦٩هـ):

أبو بكر جمال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن سحبان البكري الوائلي الشافعي ولد سنة أربع أو خمس وتسعين وستمئة للهجرة، تتلمذ على جماعة وسع من جماعة وأجاز له آخرون واشتغل في صباه وتفنن في العلوم مدة واشتهر بالفضيلة وكان حسن المحاضرة دمث الأخلاق، درس في حياة والده ببعض المدارس واستمر يزاوّل التدريس بعد وفاته. وقد بلغ في شببته مرتبة الإفتاء حتى ولاه القانونى قضاء حمص ثم قدم دمشق في أول ولاية تقي الدين السيكي فولي تدريس البادرية سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م وأقام بها وهو يشغل الناس بالجامع ثم ترك البادرية لولده شرف الدين سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م عندما ولي تدريس الاقبالية التي مات فيها في شوال سنة ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م^(٩٠).

(٨٥) المصدر نفسه والصفحة.

(٨٦) أنظر ترجمة كاملة في النعمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢٠٩/١ - ٢١٠.

(٨٧) أنظر اليافعي: مرآة الجنان ٢٤٨/٤.

(٨٨) اليافعي: مرآة الجنان ٤٨/٤، النعمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢١١/١.

(٨٩) تاريخ جليل - مخطوط مكتبة المجتمع العلمي العراقي ٢٩٧/٢.

(٩٠) أنظر محمد بن طولون الصالحي (ت ٩٥٣هـ): القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية

- تحقيق محمد أحمد الدهمان - دمشق ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م ٩١/١.

٩ - شرف الدين بن الشريشي (٧٢٩ - ٧٩٥هـ):

محمود بن محمد بن أحمد المعروف بابن الشريشي ولد بـحمص سنة ٧٢٩هـ / ٣٢٨م. أخذ العلم عن والده وشمس الدين بن قاضي شهية وإضرابهما من مشايخ عصره ودرس الأصول والنحو والمعاني والبيان وشارك في ذلك كله مشاركة قوية. واختبر للتدريس حيث درس في شهر ربيع الأول سنة ٧٥٠هـ في المدرسة الناصرية وتاب عن تاج الدين السبكي في التدريس بالرواحية ثم تولى تدريس البادرية وقد برع في التدريس والافتاء حتى قال عنه الشيخ زين الدين القرشي (يقبح علينا أن نفقي مع وجود ابن الشريشي^(٩١)) وتخرج على يده خلق كثير من فقهاء البادرية وغيرهم ومن المفيد أن نذكر هنا بعضاً منهم على سبيل المثال لا الحصر كأحمد بن عبدالله بن بدر بن مفرح وابن كامل جابر بن ثعلب الشهاب وأبو نعيم العامري الفخري الدمشقي ويعرف بالغزي. كما انتهت إليه رئاسة الشافعية في دمشق^(٩٢).

١٠ - شهاب الدين الحلبي (... ٨٠٥هـ):

شهاب الدين أحمد بن محمد الحلبي الدمشقي تولى القضاء والخطابة في قرية كرك نوح^(٩٣)، ثم ولي قضاء القدس وولي بعد ذلك تدريس البادرية بدمشق وكان من خيار الفقهاء توفي في ذي الحجة سنة^(٩٤) ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م.

١١ - شرف الدين بن البابا (٧٤٠ - ٨١٥هـ):

موسى بن سعيد الشرف المصري ثم الدمشقي المعروف بابن البابا^(٩٥) كانت له معرفة جيدة بالفقه والأصول والنجوم والطب وحصل على عدة وظائف بدمشق وأثرى وحسنت حاله ثم ولي تدريس البادرية (اسماً بغير حضور ولا معلوم

(٩١) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢١٢/١.

(٩٢) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (٨٣١ - ٩٠٢هـ): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. القاهرة ١٣٥٣هـ - ٣٥٦/١.

(٩٣) قرب البقاع شرق زحلة.

(٩٤) النعمي: المصدر السابق ٢١٢/١.

(٩٥) السخاوي: الضوء اللامع ١٨٢/١٠.

طائل^(٩٦) واستفاد البعض من علومه وعلى رأسهم المقرئزي^(٩٧) توفي في شعبان سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م وحضر جنازته طائفة من الفقهاء والعلماء^(٩٨).

١٢ - أبو بكر الحسني الحصني (٧٥٢ - ٨٢٩هـ):

أبو بكر بن محمد بن عبدالمؤمن بن حريز التقي الحسني ثم الدمشقي الشافعي ويعرف بالتقي الحصني ولد سنة ٧٥٢هـ / ١٣٥١م. وتفقه على الشريشي والزهري وابن الجابي والعرخدي والشرف الغزي وغيرهم وقد قدم دمشق وسكن البادرائية ومع أن كتب التاريخ لا تشير نصاً على أنه زاول مهنة التدريس في البادرائية إلا أننا نستنتج مما أورده السخاوي بأن الحصني كان له شرف التدريس فيها حيث يقول (سكن البادرائية وكان خفيف الروح منبسطاً له نوادر ويخرج إلى الزهة ويبعث الطلبة على ذلك مع التدين المتين والتحري في أقواله وأفعاله) توفي ليلة الأربعاء منتصف جمادي الثانية سنة ٨٢٩هـ / ١٤٢٥م وحملت جنازته على أعناق الأكابر وكان يوماً عظيماً ما تخلف عنه من أهل دمشق حتى الحنابلة مع شدة قيامهم عليه لأنه كان من المتعصبين للأشاعرة^(٩٩).

١٣ - شمس الدين الحسني (٨٣٤هـ ...):

أبو عبدالله محمد بن حسن بن محمد الحسني الشافعي اشتغل في العلم وفضل في النحو وكان قد درس على عمه تقي الدين الحصني^(١٠٠) ولزم طريقته في العبادة والتجرد حتى ولي تدريس البادرائية وأقام في عمارتها ولم يقبض بها معلوماً وتوفي يوم الاثنين في الثالث من شهر ربيع الأول سنة ٨٣٤هـ / ١٤٢٠م^(١٠١).

(٩٦) المصدر نفسه والصفحة.

(٩٧) المصدر نفسه والصفحة.

(٩٨) التعجي: المصدر السابق ١: ٢١٣.

(٩٩) أنظر السخاوي: الضوء اللامع ٨٣/٨١/١١، عبدالرزاق البيطار = - جلية البشر -

دمشق ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م ٣/ ١٦٨٢.

(١٠٠) العلمي: مختصر تنبه الطالب ص ٣٦، السخاوي: الضوء اللامع ٨١/١١.

(١٠١) ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر ٤٨٢/٣ - ٤٨٣، النعمي الدارس في تاريخ المدارس

٢١٣/١.

١٤ - كاتب السر البصري (٧٧٢ - ٨٣٥هـ):

شهاب الدين أحمد بن صالح بن محمد بن محمد بن أبي السفاح كاتب السر بحلب ثم بالديار المصرية، وسمع من الكمال بن حبيب وجماعة من الحلبيين وحفظ القرآن ومعاني الكتابة في التوقيع... تولى تدريس البادرائية بعد موت شرف الدين ابن البابا توفي سنة ٨٣٥هـ / ١٤٢١م^(١٠٢).

١٥ - شمس الدين التدمري (... ٨٤١هـ):

القاضي شمس الدين محمد بن كامل التدمري مدرس البادرائية وناب في الحكم بدمشق وولي قضاء القدس. توفي سنة ٨٤١هـ / ١٤٣٧م^(١٠٣).

١٦ - درويش محمد بن رمضان (١٠١٠ - ١٠٧٣هـ):

سبط القاضي تاج الدين الدمشقي الحنفي كان من الفضلاء الأذكياء وكان يتقن الفارسية والتركية وله إنشاء مستعذب بالتركية مع دراية واسعة في الأشعار، درس على مشاهير عصره في دمشق وتنقل بين بلاد الروم ودمشق ثم أخذ طريق المولوية وساح في بلاد الروم حتى عاد إلى دمشق بعد غياب طويل وجاور مدة في تكية المولوية ثم انتقل إلى داره وتغيرت أطواره وولي تدريس البادرائية ونظارة وقف أجداده وليس العمامة وكان يتردد على مجالس القضاء بدمشق وينادهمم وقصد مكة حاجاً ثم سكن المدينة المنورة حيث توفي فيها سنة ١٠٧٣هـ / ١٦٦٢م^(١٠٤).

١٧ - الياس الكردي (١٠٤٧ - ١١٣٨م):

الياس بن ابراهيم بن دواد بن خضر الكردي الشافعي الصوفي ولد سنة ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م قدم دمشق سنة ١٠٧٠هـ / ١٦٥٩م بعد أن طلب العلم في بغداد على جماعة من علمائها أمثال مصطفى البغدادي بن الغراب وأخيه محمود

(١٠٢) النعيمي: نفس المصدر والصفحة.

(١٠٣) محمد الحلبي: خلاصة الأثر في أعيان القرى الحادي عشر - دار صادر بيروت ١٥٦/٢.

(١٠٤) المرادي (محمد خليل): سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر - مكتبة المثنى بغداد

وطاهر بن مديح مفتي بغداد وأبو السعود القباقي الشامي وعيسى الفاضل وغيرهم كثيرون أما في دمشق فقرأ العلوم على جماعة من مشايخها قد يطول بنا ذكرهم^(١٠٥).

كرس الياس حياته للدرس والمطالعة حتى برع في علوم عديدة وقد أهلته كفاءته العلمية للتدريس في المدرسة البادرانية حتى عام ١١٠٢هـ / ١٦٩٠م حيث تحول عنها إلى جامع العداس وتوفي ليلة الثلاثاء ١٦ شعبان سنة ١١٣٨هـ / ١٧٢٥م بعد أن قارب المائة من العمر^(١٠٦).

١٨ - علاء الدين العذراوي (. . . - ١١٦٢هـ):

علاء الدين بن السيد عبداللطيف بن علاء الدين أحمد بن ابراهيم الحسيني القادري الشافعي العذراوي الدمشقي، أخذ وقرأ على جماعة في مصر ودمشق ومنهم محمد الديري نزيل دمشق . . . حتى بلغ مرتبة مرموقة في العلم انتفع به الجمل الغفير من الطلاب عند تدريسه في الجامع الأموي ثم المدرسة البادرانية التي استمر على التدريس فيها حتى وفاته سنة ١١٦٢هـ / ١٧٤٨م ودفن في تربة مرج الدحداح^(١٠٧).

١٩ - الشيخ محمد الشطي (١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ):

محمد بن حسن بن عمر بن معروف الشطي الحنبلي الدمشقي . . الفقيه الفرضي ولد بدمشق في ١٠ جمادي الثانية سنة ١٢٤٨هـ وقرأ القرآن وحفظه ولازم دروس والده في التوحيد والفقه والفرائض والحساب والنحو والصرف وغير ذلك واستجاز له والده وغيره من علماء دمشق الذي استكمل عليهم دراسته في الحديث والفقه والنحو وعلم الفلك حتى أصبح من أعيان العلماء في التدريس والتأليف الغزير لأمّهات الكتب في العلوم التي درسها وطبعت معظمها منها (رسالة الفتح المبين في الفرائض و) (بسط الراحة لتناول المساحة) في الهندسة، وكان يميل إلى إحياء

(١٠٥) المرادي: نفس المصدر السابق ٢٧٢/١ - ٢٧٣.

(١٠٦) نفس المصدر ٢٦٠/٣.

(١٠٧) الشطي (محمد جميل): أعيان دمشق في القرن الثالث عشر - دمشق - طبعة ثانية

١٩٧٢، ص ٣٤٣ - ٣٤٥.

المذاهب المدرسة ونشرها حيث جمع مسائل الامام داود الظاهري في رسالة خلال أيام معدودة قدمها إلى العلامة محمود أفندي الحمزاوي مفتي دمشق... اختار مهنة التدريس لسنتين عديدة اضافة إلى الوظائف الهامة قبل أن يتحمل هو وأخيه العلامة الشيخ أحمد الشطي وظيفة التولية والتدريس في المدرسة البادرية... كانا يعتمد عليهما في الفقه والفرائض والحساب والهندسة وإليهما يرجع في المناسخات والمساحات وتقسيم المياه والدور. وقد أخذ عنها كثير من فضلاء دمشق وغيرها من مدن بلاد الشام وقد توفي المترجم له في الخامس من رمضان سنة ١٣٠٧هـ / ١٨٨٩م ودفن بمقبرة المذهبية بموكب عظيم^(١٠٨).

٢٠ - فرفور:

محمد صالح سليل بني فرفور ورئيس جمعية الفتح الاسلامي^(١٠٩). درس في ايوان المدرسة البادرية وحرّمها زمناً طويلاً حاشية ابن عابدين وشرح بن عقيل على الفيه ابن مالك والقُدوري والطائي على الكتر^(١١٠).

* * *

المعيدون:

كان ملاك المدرسة يحوي على معيدين ممن عرفا بالعلم والمعرفة يساعدان مدرستها في مهمة التدريس، حتى أن بعض معيديها رشّحوا للتدريس فيها أو جمعوا بين الاثنين وهم:

١ - الكمال رسلان (. . . - ٦٧٠هـ):

كمال الدين أبو الفضائل رسلان^(١١١) بن الحسن بن عمر بن سعيد الأربلي الدمشقي مفتي الشام الأواحد وشيخ الأصحاب في العلماء وعلى رأسهم ابن الصلاح

(١٠٨) صالح فرفور: الدر المنثور - مطبعة النثر في ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م ص ١٢.

(١٠٩) نفس المصدر ص ٣٤.

(١١٠) في ذيل مراه الزمان لليوخي (سلا) ٧٠/١.

(١١١) الرواني عبدالأحد بن إسماعيل بن أحمد (٤١٥ - ٥٠٢هـ).

ومفيد الطلاب وعلى رأسهم النووي وكان فريد عصره في العلم تفقه وبرع في المذهب الشافعي على ابن الصلاح وأبو بكر الماهياني وابن البرزي عينه البادرائي المعيد الأول في مدرسته حيث بقي فيها حتى وفاته في سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م وقد تولى تدريس البادرائية أيضاً وانفرد بها بعد وفاة مدرستها جمال الدين البادرائي. ولم تشته هذه المهام عن الانكباب على التصنيف والتعليق والجمع والتأليف حيث اختصر البحر للروايي في عدة مجلدات^(١١٢) وهو من أطول كتب الشافعية وصنف مختصر روضة الحكام للروايي^(١١٣).

٢ - الشيخ نجم الدين الموقاني:

تولى الاعادة بها مع كمال الدين سنلار كمعيد ثان طبقاً لشروط الوقفية^(١١٤).

٣ - عز الدين الأربلي (. . . - ٦٧٥هـ):

عز الدين أبو حفص عمر بن أسعد بن أبي غالب الأربلي معيد البادرائية وصاحب بن الصلاح وشيخ النواوي سمع الحديث من جماعة وقال عنه الذهبي (وكان ديناً فاضلاً بارعاً في المذهب وقد ناب في القضاء عن ابن الصائغ . . . ودرّس واشتغل وكان النووي رحمه الله تعالى يتأدب معه، ربما قام وملاً الأبريق ومشى به قدامه للطهارة)^(١١٥) توفي في رمضان سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م.

(١١٢) البغدادي: هدية العارفين ٣٨٧٠/١، وفي نثر ترجمته أنظر ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٣٣١/٥ - ٣٣٢، الذهبي: العبر ٢٩٣/٥، السيكي: طبقات الشافعية الكبرى ٥٦/٥، النووي: التهذيب ١٨/١، الأستوي: طبقات الشافعية ٦٩/٢، اليافعي: مرآة الجنان ١٧١/٤.

(١١٣) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٧٠/١.

(١١٤) أنظر النعمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢٠٨/١، وانظر في ترجمته ابن الصائغ عز الدين محمد بن عبد القادر الأنصاري الدمشقي المتوفي سنة ٦٨٣هـ. الأستوي في طبقات الشافعية ١٤٦/٢ - ١٤٧.

(١١٥) أنظر ترجمته في طبقات الشافعية للأستوي ١٨١/٢، السيكي: طبقات الشافعية الكبرى (الحسنية) ١٢٥/٦، ابن كثير: البداية والنهاية ٤٣/١٤، اليافعي: مرآة الجنان ١٦٦/٤ الحنبلي: شذرات الذهب ١٤/٦، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٢٢٥/٨، النعمي الدارس ٤٧٠/١ - البغدادي: هدية العارفين ٥٨١/١ - حاجي خليفة: كشف الظنون ص ٦٢٥.

٤ - الضياء الطوسي (. . . - ٧٠٦هـ) :

أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن علي الطوسي الملقب ضياء الدين نزيل دمشق له كتاب كاشف الرموز ومظهر الكنوز في شرح منتهى السؤال والأمل لابن الحاجب في الأصول ومصباح الحاوي ومفتاح الفتاوي وشرح الحاوي الصغير للقزويني في الفروع وأعاد مدة في البادرائية توفي يوم الأربعاء ٢٩ جمادي الأولى سنة ٧٠٦هـ / ١٣٠٦م^(١١٦).

٥ - جلال الدين القزويني (. . . - ٧٣٩هـ) :

محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن جلال الدين القزويني يذكر أنه من نسل أبي دلف العجلي قدم دمشق من بلاده وتدرج في المناصب حتى تولى منصب قاضي قضاة دمشق. وأعاد بالمدرسة البادرائية وله مصنفات عديدة منها كتاب التلخيص في المعاني والبيان وكتاب الايضاح توفي بدمشق سنة ٧٣٩هـ / ١٣٢٨م ورثاه القاضي صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي بقصيدة مطولة^(١١٧).

٦ - علاء الدين الخراط (. . . - ٧٣٩هـ) :

الحافظ علاء الدين علي بن عثمان الخراط حدث عن البخاري وغيره وعمل خطباً ومقامات. وكان معيداً في المدرسة البادرائية لمدة طويلة من الزمن حتى توفي بدمشق سنة ٧٣٩هـ / ١٣٢٨م ويعد من المعمرين^(١١٨).

٧ - علاء الدين المقدسي (٦٦٦ - ٧٤٨هـ) :

علاء الدين علي بن أيوب بني منصور بن رزين المقدسي الشافعي وعرف بعلبان ولد حوالي ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م قرأ على تاج الدين الغزاري وابنه برهان الدين وسمع من الفخر بن البخاري وعبد الرحمن بن الزين وحدث بدمشق والقاهرة وبرع في الفقه واللغة العربية وسمع منه الذهبي ووصفه في كتابه المعجم المختصر بـ (الامام الفقيه البارع المحدث، بقية السلف. . .) كان معيداً في البادرائية وكان ذو

(١١٦) ذكرت القصيدة في ترجمته التي أوردها السيكي في طبقات الشافعية الكبرى ٢٢٨/٥.

(١١٧) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢١٤/١.

(١١٨) المصدر نفسه ص ٦٤.

خط ملّيح، كتب في أول أمره كثيراً من كتب العلم ولما بيعت في حياته تغالى الناس فيها لصحتها توفي في رمضان سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م (١١٩).

٨ - أبو عبدالله المقدشي:

أبو عبدالله محمد بن علي بن أبي بكر بن الحسن بن يوسف بن التميمي الجوهري الشافعي المقدشي ويقال له المقدشاوي، عرف بالفقه وكان معيداً في المدرسة البادرائية في نفس الوقت الذي زاول فيها علاء الدين المقدسي الاعادة أيضاً طبقاً لشروط المدرسة التي أقرها مؤسسها توفي سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م (١٢٠).

٩ - شمس الدين الكواكبي (٧٦٩هـ):

شمس الدين محمد بن غمر بن عثمان الكواكبي من الحجار وغيره وتفقه وأعاد بالمدرسة البادرائية... وكتب بخطه كثيراً من الكتب توفي في شهر رجب سنة ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م (١٢١).

١٠ - السري (٧٨٥ - ١٠٠٠هـ):

محمد بن علي السري أحد المعيدين بالبادرائية وله نظم ركيك مات في صفر سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م (١٢٢).

١١ - ابراهيم الحلبي (٧٨٦هـ):

ابراهيم بن عيسى الحلبي أحد فقهاء الشافعية وكان قد اشتهر بكونه معيداً في المدرسة البادرائية. قال عنه ابن حجي (كان على سحت السلف، سليم الفطرة وخطه ضعيف لكنه نسخ كثيراً ووقف كتبه ومات في رمضان بطرابلس سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م (١٢٣).

(١١٩) أنظر البغدادي: هدية العارفين ١٥٦/٢.

(١٢٠) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢١٤/١.

(١٢١) الذهبي: أنباء الغمر ٢٨٦/١.

(١٢٢) الذهبي: نفس المصدر ٢٩٢/١.

(١٢٣) ابن قاضي شهية: تاريخه - مخطوط - نسخة باريس برقم ٢/٩٩، ج ١، ورقة ١٦٢ و ١٦٩.

١٢ - علاء الدين الحموي:

اشتغل بحمأة ثم قدم دمشق في حدود سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م أو قبلها وولي إعادة البادرائية واستمر على ذلك حتى وفاة مدرستها الشيخ شرف الدين في صفر ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م حيث باشر المرقوم التدريس فيها منذ سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م^(١٢٤)، وبالإضافة إلى التدريس كان في بعض الأحيان يخطب في مسجدتها ويقراء قراءة حسنة بالمحراب ويتصدر بالجامع^(١٢٥) ولكن صفة التدريس كانت هي الغالبة على الاعادة والخطبة حتى عرف فيما بعد بمدرس البادرائية. ثم تولى التدريس فيها بعد وفاته، أولاده حيث استمروا على ذلك عشرين عاماً من بعده^(١٢٦).

* * *

نظار المدرسة:

كان للمدرسة نظارة تشرف على شؤونها الادارية، والناظر في حد ذاته المسؤول الأول عن الاشراف على سير التدريس لتوفير الخدمات للطلاب وما يحتاجونه من فرش وكتب وقرطاسية وتنظيم سجلات والاشراف على وقوفها التي وصفها ابن كثير بـ (الحسنة) والتي منها كان الناظر يصرف أرزاق الطلاب ومرتبات مدرستها ومعيديها وسائر موظفيها. وقد تولى هذه الوظيفة عدد من النظار على امتداد عمرها المديد تذكر لنا كتب التاريخ أسماء بعضهم وهم:

١ - وجيه الدين التكريتي (. . . - ٦٧٠هـ):

وجيه الدين محمد بن علي بن أبي طالب بن سويد التكريتي وكان ذو مال كثير جمعه من اشتغاله بالتجارة أنفق منه على البادرائية بسخاء وكانت تجلله حرمة واسعة في الدولة الناصرية والظاهرية^(١٢٧).

(١٢٤) نفس المصدر ص ١٦٩.

(١٢٥) نفس المصدر ص ١٦٢.

(١٢٦) نفس المصدر والصفحة.

(١٢٧) أنظر ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/١٩٧ ابن العماد الجنبلي: شذرات الذهب ٥/٣٣٣، الذهبي: العبر ٥/٢٩٤.

٢ - عز الدين بن الصايغ (٦٢٨ - ٦٨٣هـ):

قاضي القضاة عز الدين^(١٢٨) أبو المفاخر محمد بن عبد القادر بن عبد الحق بن خليل الأنصاري الدمشقي الشافعي ولد سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م سمع الحديث من شيخ عصره في دمشق حتى صار من أعيان أصحابه^(١٢٩). وكان عارفاً بالمذهب بارعاً في الأصول والمناظرة ودرس قبل النظارة في المدرسة الشامية والعذراوية^(١٣٠) ويذكر اليونيني: انه جعل نظر البادرية إليه بعد وفاة وجيه الدين التكريتي^(١٣١) إلا أن ابن كثير يرى: أنه مارس هذه المهمة في بعض الأوقات^(١٣٢).

٣ - زوجة وجيه الدين التكريتي:

يذكر قطب الدين اليونيني (ت ٧٢٦هـ / ٢٣٢٦م) بأن نظارة المدرسة تحولت من عز الدين الصايغ إلى زوجة ابن وجيه التكريتي بعد أن ثبت أن الوجيه جعل النظر لزوجته ولذريته من بعده^(١٣٣).

٤ - نصير الدين التكريتي:

نصير الدين بن وجيه الدين محمد بن سويد التكريتي كان المباشر لنظارة المدرسة البادرية بعد وفاة والدته حيث يؤكد اليونيني ذلك بقوله (والمباشر لنظرها الآن حال تسطير هذه الأسطر ولدها نصير الدين ولد وجيه الدين المذكور)^(١٣٤). وبذلك تكون النظارة قد استمرت في ولد وجيه الدين وأحفاده حتى النصف الثاني من القرن الثامن الهجري^(١٣٥).

(١٢٨) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٧١/١، وفي ابن كثير (تسمى الدين) أنظر كتابه البداية والنهاية ١٩٧/١٣.

(١٢٩) أنظر: العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٣٨٣/٥ - ٣٨٤.

(١٣٠) نفس المصدر والصفحة.

(١٣١) ذيل مرآة الزمان ٧١/١.

(١٣٢) ابن كثير/البداية والنهاية ١٩٧/١٣، بدران: مناداة الأطلال ص ٨٨.

(١٣٣) اليونيني: المصدر نفسه.

(١٣٤) المصدر السابق والصفحة.

(١٣٥) المصدر نفسه والصفحة، ابن كثير: المصدر السابق ١٩٧/١٣.

٥ - خليل الخشبة (١١٧٩ - ١٢٨٠هـ):

خليل بن محمد بن خليل بن عمر بن سعيد الشهير بالخشبة الشافعي الدمشقي العلامة المحقق الفهامة المدقق العمدة الكبير القدوة الشهير، كان عالماً جليلاً، أديباً وشاعراً متفناً. له اليد الطولى في العلوم ولا سيما الفقه الشافعي، ولد بدمشق ١١٧٩هـ / ١٧٦٥م ونشأ بها وأخذ عن الكثير من علماء دمشق وامتحن التدريس في العديد من مدارسها حتى تولى نظر وتدريس المدرسة البادرية حين وفاته في سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٢م^(١٣٦).

٦ - حسن الشطي:

حسن بن عمر الشطي.. رحل إليه طلبية العلم من أنحاء البلاد الإسلامية وأخذوا عنه الفقه كما انفرد بعلم الفرائض^(١٣٧) وكان عليه نظارة البادرية وإلى ذلك يشير حفيده جميل الشطي بقوله (ولم تزل - أي البادرية - في يدنا نظراً وتديساً إلى الآن ١٣٢٥هـ وهي بمحمد الله من أحسن مدارس دمشق وأعمرها)^(١٣٨).

٧ - أحمد الشطي (١٢٥١ - ١٣١٦هـ):

أحمد بن حسن بن عمر الشطي الدمشقي مفتي الخنابلة بدمشق وأحد علمائها الاعلام يقول - صاحب حلبة الشر (وتولى هو والجد الموماً إليه نظارة وتدريس المدرسة البادرية وكانا مرجع أهل دمشق في المناسحات)^(١٣٩).

* * *

فقهائها وأئمتها وخطبائها:

عمل في مسجد البادرية عدد من الأئمة والخطباء والفقهاء وكان بعضهم على مستوى رفيع من العلم أهلهم لإلقاء الدروس في ايوانها نذكر منهم:

(١٣٦) الشطي: أعيان دمشق ص ١١٣.

(١٣٧) جميل الشطي: روض البشر ص ٤٧٨، عبدالرزاق البيطار: حلبة البشر ١/ ٣٣.

(١٣٨) الشطي: أعيان دمشق ص ١١٣.

(١٣٩) عبدالرزاق البيطار: حلبة البشر ٣/ ١٩٥٤.

١ - أبو اسحاق المرادي الأندلسي (. . . - ٦٩٧هـ) :

ابراهيم بن عيسى بن يوسف بن أبي بكر الشيخ الامام المحدث أبو اسحاق المرادي الأندلسي قال عنه أبو المحاسن (كان إماماً فقيهاً وكتب الكثير بخطه المتقن المليح، وكان صالحاً ورعاً إماماً بالبادرائية بدمشق)^(١٤٠) وأثنى عليه النووي في طبقاته فوصفه بـ (معرفة الحديث وعلومه وتحقيق ألفاظه ولا سيما الصحيحين وكان ذا غناية باللغة العربية والفقه ومعارف الصوفية من كبار المسلكين في طريق الحقائق وحسن التعليم)^(١٤١).

٢ - اليلداني :

الخطيب علاء الدين علي اليلداني والد الخطيب شمس الدين محمد المتوفى سنة ٨١٤هـ / ١٤١١م قال عنه ابن طولون الصالحى أنه (من فقهاء البادرائية ويحدث على الكراسي معروفاً بذلك)^(١٤٢).

٣ - جميل الشطي :

ولد سنة ١٣٠٠هـ وألف كتباً كثيرة وتولى مناصب جليلة في دمشق حتى انتدب من قبل السلطة العثمانية للتدريس والخطبة في مسجد البادرائية سنة ١٣٥٢هـ وكانت جهوده مثمرة في إنعاش الحياة العلمية للمدرسة المذكورة^(١٤٣).

٤ - محمد جميل الشطي :

تولى محمد الشطي الخطبة في المدرسة البادرائية لمدة طويلة بدأت منذ سنة ١٣٥٢هـ / ١٩٣٤م وقد اعتمد في الخطب التي كان يلقيها في البادرائية ديوان خطب الشيخ صالح بن محمد بن صالح القزاز الدمشقي الشافعي حيث أشار إلى

(١٤٠) أبو المحاسن: المنهل الصافي ٢١٧/١.

(١٤١) أبو زكريا يحيى بن شريف الحافظ (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م): كتاب طبقات الشافعية

- مخطوط دار الكتب المصرية المرقم ٢٠٢١ تاريخ ورقة ٣٨.

(١٤٢) أنظر الصالحى (محمد بن طولون): إعلام الورى تحقيق محمد أحمد الدهان المطبعة الجدية

الرسمية - دمشق ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م ص ٢.

(١٤٣) صالح فرفور: الدر المنثور ص ٣٤.

ذلك في أعيان دمشق قاتلاً (ومن مؤلفات المترجم - أي القزاز - ديوان خطب لم نزل نخطب منه في مدرستنا البادرية) (١٤٤).

* * *

من أقام بالمدرسة من العلماء:

شهدت غرف المدرسة البادرية إقامات طويلة لعلماء قدموا دمشق من أنحاء العالم الاسلامي عرفوا بإنتاجاتهم العلمية الغنية، وبرزت آثارهم في إمكانات المدرسة العلمية والتعليمية، حيث عملوا فيها كبجائة كرسوا مدد إقامتهم للبحث والتقصي أو كأساتذة زائرين عقدوا حلقات دراسية للطلبة وقدموا خدماتهم للمشتغلين في حقل العلم والمعرفة من أهل دمشق. كما إن بعضهم قد استخدموا غرفها للبحث وتقصي العلوم رغم أنهم كانوا يسكنون دوراً قريبة من المدرسة وسوف نستدل على ذلك ببعض الأمثلة التي سنوضح من خلالها أنواع مختلفة للأنشطة العلمية التي قدمها أولئك المقيمون في غرفها من العلماء والأدباء طوال فترة إقامتهم ومنهم:

١ - الحسيني:

زين الدين الحسيني الفقيه العالم الذي أقام بالبادرية مدة طويلة وتلمذ على يده فيها علماء دمشقيون منهم عبدالرحيم بن عبدالكريم بن عبدالرحيم والقاضي زين الدين النداوي قاضي زرع وغيرهما سنة ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م (١٤٥).

٢ - حماد البصري:

نزىل البادرية سنة ٩٣٦هـ / ١٥٢٩م وكان يلعب بالشطرنج فتقدمت إليه أكابر دمشق ومصر والحجاز ولعبوا معه بعد أن ربطوا عينيه ربطاً محكماً فغلبهم... وذكروا أنه يتمكن من اللعب مع خمسة أنفس على خمس رقع... وكتب أربعة عشر مصحفاً للسبعة قبل أن يصاب بالعمى (١٤٦).

(١٤٤) الشطي: أعيان دمشق ص ١٤٦ - ١٤٧ - ٣٠٥.

(١٤٥) ابن قاضي شهية: تاريخه - مخطوط - ج ١، ورقة ١٣٨.

(١٤٦) محمد جمعة المقار: كتاب الباشات والقضاة في دمشق - ن جمعه وحققه صلاح الدين

المنجد ص ١٠، ابن شداد: الاعلاق الخطيرة قسم (دمشق) طبعه ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦ ص

٣ - العنایاتی :

أحمد العنایاتی النابلسی الأصل الدمشقی السکن والدار یقول البورینی^(١٤٧) (ثم ارتحل إلى المدرسة البادرانیة واستمر بها مجاوراً في حجرة إلى أن مات بها سنة ١٠١٤هـ) وقد أثنی علی معرفته الأدبیة وقدرته الشعریة بقوله (وبالجملة فهو شاعر الوقت بالإجماع وصاحب دیوان العرب بلا نزاع ولا یمائله فی نظم الشعر ممائل ولا یشاکله فی سرعة النظم طائل...) ^(١٤٨) وتوفی فی حجرته بالبادرانیة ولم تشر المراجع إلى كونه قد دفن فی مقبرة من مقابر دمشق وربما دفن فی حجرته علماً بأنه لا یزال یوجد قبر مجهول فی الحجرة التي تقع فی مسلك المدرسة وتنسب خطأً إلى مؤسسها^(١٤٩).

٤ - عبدالله البصري (١٠٩٧ - ١١٧٠) :

عبدالله بن زین الدین بن أحمد الشهیر بالبصري الشافعی الدمشقی ولد سنة ١٠٩٧هـ / ١٦٨٥م وقد عدّه البعض من المدرسین غیر الرسمیین فی المدرسة البادرانیة. وترجم له صاحب کتاب سلك الدور قائلاً (ادریس العصر وفرضی الدهر وإخباری الزمان وأثری الألوان كان محققاً أوحداً إخبارياً فقیهاً مؤرخاً له فی كل علم باع وفی كل فن اطلاع لا سیما الفرائض فإنه انفرد بها فی وقته وأما غیرها من العلوم فإنه كان ممن لم یرسم الزمان بمثاله. وكان أحد الشیوخ الذین تباہت بهم دمشق زهوراً وإعجاباً وازدهت معالمها بهم وله يد طوالی فی أساء الرجال والوفیات والموالید وغیر ذلك...) ^(١٥٠) وفی أول أمره كان یقرئ حذاء باب المنارة الشرقیة فی الجامع الأموی ثم انتقل إلى حجرته فی البادرانیة وإلى داره فی ظاهر دمشق بمحله القبة من باب الشرقي وكان الطلبة یرعون إلیه فی المحلین وكان عنده كتب كثيرة

(١٤٧) البورینی حسن بن محمد ت ١٠٢٤هـ / ١٦١٥م : تراجم الأعیان من أبناء الزمان تحقیق

د. صلاح الدین المنجد - دمشق ١٩٥٩م ٩٢/١ - ٩٣.

(١٤٨) نفس المصدر ١٠٨/١.

(١٤٩) أنظر نفس المصدر ٩٦/١.

(١٥٠) محمد خلیل المرادی : سلك الدور ٨٦/٢.

معتبرة جعلها للعارية لا يسكها عن مستفيد... ولم يزل على حالته هذه إلى أن مات في رجب سنة ١١٧٠هـ / ١٧٥٦م^(١٥١).

٥ - عبدالله الطرابلسي:

عبدالله بن عمر بن محمد المعروف بالأفيوني الحنفي الطرابلسي، كان أديباً شاعراً له سرعة تحرير في الكتابة مع خط باهر ولد بطرابلس الشام وكان والده من أفاضل الفقهاء فقدم معه إلى دمشق واستوطنها في المدرسة البادرية سنة ١١٤٦هـ / ١٧٣٣م إلى أن مات سنة ١١٥٤هـ / ١٧٤١م... انكب طوال حياته على التأليف التي منها شرح البردة سماها (الفیوضات المحمدية على الكواكب الدرية) والعقود الدرية في رحلة الديار المصرية والزهر البسام في فضائل الشام والزهرة الندية ومختصر الاشاعة في إشرائط الساعة ورنه المتاني في حكم الاقتباس القرآني وغيرها من التأليف^(١٥٢).

٦ - مصطفى البكري (١٠٩٩ - ١١٦٢هـ):

مصطفى ابن كمال الدين بن علي بن كمال الدين بن عبد القادر محي الدين الصديقي الدمشقي البكري الاستاذ الكبير والواحد المعدود يألف أصحاب العوارف والمعارف والتأليف والآثار التي اشتهرت شرقاً وغرباً وبعد صيتها في الناس عرباً وعجماً... أحد أفراد الزمان وصناديد الاجلاء من العلماء - الاعلام ولد سنة ١٠٩٩هـ / ١٦٨٧م واشتغل بطلب العلم في صباه وفي سنة ١١١٩هـ / ١٧٠٧م سكن ايوان المدرسة البادرية ونزل في حجرة يقصد بها الانفراد والاشتغال بالأذكار والأوراد وأذن له شيخه عبداللطيف بن حسام الدين الحلبي الخلقوي بالمبايعة والتخليف سنة ١١٢٠هـ / ١٧٠٨م أذنأ عاماً... ثم أن تلامذته توجهوا إليه واجتمعوا عليه وجددوا أخذ البيعة عنه فشاع خبره وذاع أمره وكثر جمع جماعته وقد صنف كثيراً من الكتب والرسائل منها (ورد السحر) المسمى بالفتح القدسي. والكشف الأنسي على ما هو مرتب من الحروف وشرحه على قصيدة المنفرجة لأبي

(١٥١) نفس المصدر ٨٧/٢.

(١٥٢) أنظر نفس المصدر ٩٣/٢.

عبدالله النحوي وشرحه على قصيدة أبي حامد الغزالي وشرحه على بيت من تائية ابن الفارض وله ١٢ مقامة و١٢ رحلة و٧ دواوين شعرية والفية في التصوف وأراجيز في علوم الطريقة وله (السيوف الحداد في الرد على أهل الزندقة والألحاد) و(الفرق المؤذن بالطرب في الفرق بين العجم والعرب) وقد بلغت مؤلفاته ٢٢٢ مؤلفاً... بالإضافة إلى العديد من المقامات وله نظم كثير وقصائد جمّة خارجات على الدواوين تقارب ١٢ ألف بيت (وعلى كل حال فإستقصاء أحواله يكاد أن يعدّ من المحال) (١٥٣) توفي الاثنين ١٨ ربيع الثاني سنة ١١٦ هـ / ١٧٤٧ م (١٥٤).

وهذه الانتاجات وغيرها تدلنا على أنه كان للبادرائية مساهمة واضحة في رفد علوم العصر من خلال انتاجات رجالها.

٧ - صالح اليافي (. . . - ١٢٥٠ هـ) :

الشيخ صالح اليافي الشافعي الخلوتي، كان إماماً بارعاً عابداً زاهداً شافعي المذهب خلوتي المشرب وقد اشتغل في الارشاد وربي المريدين وأفاد وله تأليف عديدة منها مختصر التفسير والحكم في كلام القوم، وكان على طريق السادة الصوفية والقادة الخلوتية توفي بدمشق سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م وقبره معروف في مرج الدحاح (١٥٥).

٨ - يحيى السردست (. . . - ١٢٦٤ هـ) :

الشيخ يحيى السردست الحنفي الدمشقي علامة الزمان وفهامة العصر، كان من العلماء العاملين، إمام المحققين وهمام المدققين، وكان منقطعاً في المدرسة البادرائية توفي بدمشق في ١٧ شوال سنة (١٥٦) ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٧ م.

٩ - الشيخ محمد القبر ستاني (. . . - ١٣٠٦ هـ) :

قدم دمشق سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م وقرأ على كبار شيوخها ثم عاد إلى مصر

(١٥٣) المرادي: سلك الدرر ١٩٦/٤.

(١٥٤) نفس المصدر ١٩٠/٤ - ٢٠٠.

(١٥٥) البيطار: حلية البشر ٧١٦/١: محمد جميل الشطي: أعيان دمشق ص ١٥٠.

(١٥٦) نفس المصدر ١٥٩٤/٣.

سنة ١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م فدخل الأزهر وانقطع للتحصيل فيه ودرس علوم الميقات والفلك والجبر والمقابلة إلى أن صار إماماً في العلوم العقلية والنقلية وقفل راجعاً إلى بلاد الشام حيث استوطن دمشق في محلة الميدان سنة ١٢٦٥هـ / ١٨٤٩م ولم يزل يقرئ الطلبة ثم استأجر الأمير عبدالقادر الجزائري له داراً قريباً من داره وعين له معاشاً وأرسل إليه جميع أولاده للقراءة عنده، فكان يقرؤهم ويقرئ غيرهم في حجرته في المدرسة البادرية وكان مع ذلك يشغل بحساب الجداول مما يتعلق بالجيوب وما له علاقة بعلم الفلك والميقات والربع المقنطر والمجيب والأسطرلاب... توفي سنة ١٣٠٦هـ / ١٨٨٨م^(١٥٧).

١٠ - الشيخ أحمد سنون الحجار:

من أعيان القرن الثالث عشر الهجري ونزيل المدرسة البادرية وقد تلقى على يده أبو السعود الغزي (١٢٣١ - ١٣١٧هـ) علومه^(١٥٨).

١١ - محمد أفندي الرومي:

محمد بن عبدالله الرومي أصلاً وشهرة الحنفي نزيل المدرسة البادرية بدمشق ومن علمائها البارزين تتلمذ على يده في البادرية كثيرون على رأسهم عبدالرحمن بن مصطفى بن ناصر بيازيد الحلبي المعروف بسبويه زمانه توفي سنة ١٢٥٢هـ / ١٨٣٧م^(١٥٩).

١٢ - عبداللطيف (١١٨٢ - ١٢٥٠هـ):

عبداللطيف بن عبدالكريم بن عبداللطيف بن زيد الدين بن محمد الحنفي البيروني ثم الدمشقي الشهير بمفتي بيروت، تولى ثغر بيروت وكان لا يضاهاى وله شعر رائع - كان نزيل البادرية وقد ألقى محاضرات علمية عديدة انتفع بها جماعة

(١٥٧) البيطار (محمد بهجة): موجز حلية البشر ٣/ ١٦٤٠ - ١٦٤٢ (وهو ملحق بكتاب حلية البشر لعبدالرزاق البيطار).

(١٥٨) الشطي: أعيان دمشق ص ٢٩.

(١٥٩) نفس المصدر ص ١٦٥ و ٢٤١.

من علماء دمشق وفضلائها كالشيخ عبد القادر الخطيب وأبي السعود أفندي الغزي وغيرهما (١٦٠).

* *

تلاميذ المدرسة:

جعل البادرائي مدرسته (محصورة على عدد معلوم^(١٦١)) من الطلاب وعين لكل واحد منهم مقداراً ما يصرف من الجامكية والخبز^(١٦٢). كما شرط أن لا يكون الفقيه — أي الطالب — بها بمدرسة أخرى ولا يكون متأهلاً ويسكن في إحدى غرف المدرسة العشرين التي كانت تحيط بصحنها في طابقين^(١٦٣).

وقد سمحت شروط المدرسة لغير المقيمين فيها من الطلاب حضور الدروس العلمية والفقهية واللغوية والحسابية التي كانت تلقى في إيوانها أو من قبل الأساتذة الزائرين لها أو المقيمين في حجرها. وكذلك حضور خطب أئمة مسجدها الذي كان يشغل الناحية الشمالية من بنائها.

هذا بالإضافة إلى الطلبة الصغار وهم الصبية الذين كانوا يأمنونها لتعلم قراءة القرآن على يد بعض معلمي المدرسة وخاصة في العقد الأخير من حياة المدرسة العلمية وبذلك يذكر بهجة البيطار^(١٦٤) في ترجمة الشيخ محمد القبرستاني المقيم في البادرائية قائلاً (إن الأمير السيد عبد القادر الجزائري استأجر له داراً قريباً من داره وعين له معاشاً، وأرسل إليه جميع أولاده للقراءة عنده. كان يقرؤهم ويقراء غيرهم في حجرته في المدرسة البادرائية)^(١٦٥) لذلك نستطيع القول ان الطلاب وفدوا على

(١٦٠) نفس المصدر ص ١٩٥ — ١٩٦.

(١٦١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٧١/١.

(١٦٢) نفس المصدر والصفحة. والحاجكية — من أصل فارسي — بمعنى الكسوة.

(١٦٣) نفس المصدر والصفحة، بدران: منادقة الأطلال ص ٨٨.

(١٦٤) بهجة البيطار: موجز حلية البشر ١٦٤١/٣.

(١٦٥) نفس المصدر والصفحة.

المدرسة البادرائية من جميع أنحاء البلاد الشامية والأقطار العربية الإسلامية... بقصد التحصيل العلمي أو الاستزادة منه. وهو نفس الهدف الذي من أجله قصدوا المدرسة النظامية في بغداد وذلك لتطابق المنهج التعليمي في كلا المدرستين الذي كان مقصوراً على الفقه الشافعي حتى أن المدرسة البادرائية هي الأخرى لم تقبل من الطلاب إلا من كان شافعيّاً أصلاً وفرعاً. لا سيما وأن مؤسسها كان أحد طلاب النظامية حيث درس فيها الفقه والعلم وقد أكد ذلك اليونيني بقوله (بلغني أنه قال للزين خالد النابلسي تذكره ونحن في النظامية والفقهاء - أي الطلاب - يلقبونك خولتاً، قال نعم، وكانوا يلقبونك بالدعشوش فضحك الشيخ نجم الدين البادرائي) (١٦٦). كما كان الأستاذ السابع والثلاثين في سلسلة أساتذة النظامية ببغداد خاصة وإن اختياره للتدريس فيها جاء على ضوء مؤهلاته العلمية الراقية التي تؤكدتها كتب الرجال والتاريخ فيما قدمت له فيها من ترجمات (١٦٧).

لذلك نستطيع القول ان البادرائي نقل شروط النظامية لمدرسته في اختيار طلابها التي أشارت كتب التاريخ إلى كثرة المتخرجين من إيوائها في الفقه وغيره من العلوم ولذلك يقول صالح الفرفوري في كتابه الدر المنثور (أنجبت عدداً كبيراً من العلماء التحارير والأئمة والخطباء والمدرسين... (١٦٨) ويؤكد اليافعي ذلك في سياق ترجمته لبرهان الدين الفزاوي بقوله (وله مشيخة يحدث بالصحيحين وأعاد لوالده وخلفه في تدريس البادرائية وفي حلقة بالجامع وتخرج له أئمة) (١٦٩) ويذكر الذهبي الكمال رسلان بقوله (لم يكن معه غير إعادة البادرائية وتفقه به جماعة) (١٧٠) كما يقول الحنبلي في ترجمته للفزاري مدرس البادرائية الشهير «وانتفع به جم غفير فمعظم

(١٦٦) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٧٢/١.

(١٦٧) الحنبلي: شذرات الذهب ٢٦٩/٥، الذهبي: العبر ٢٢٣/٥، الأستوي: طبقات

الشافعية ٢٧٦/١، اليافعي، مرآة الجنان ١٣٧/٤، النعيمي الدارس في تاريخ المدارس

٣٠٥/١، ناجي معروف: علماء النظاميات ص ٢٤.

(١٦٨) صالح فرفور: الدر المنثور ص ٣٤.

(١٦٩) اليافعي: مرآة الجنان ٢٧٩/٤.

(١٧٠) الذهبي: العبر ٢٩٣/٥.

قضاة الشام وما حولها وقضاة الأطراف من تلامذته^(١٧١) ويشير النعيمي إلى الخلق الكثير من فقهاء البادرائية الذين تخرجوا على يد مدرستها ابن الشريشي^(١٧٢). كما أن الطلبة كانوا يهرعون إلى مدرس البادرائية عبدالله البصري في داره وفي حجرته بالبادرائية ويقول محمد جميل الشطي^(١٧٣) في ترجمته لتزليل البادرائية عبداللطيف في بيروت أنه (أخذ عنه وانتفع به جماعة من علماء دمشق وفضلائها) ومن هذه النصوص وغيرها نستدل على أن المدرسة قد خرجت أعداداً كبيراً من الطلاب الذين تبؤوا مناصب رفيعة في مجال العلم والدولة نذكر منهم:

- ١ - ابراهيم بن عبدالرحمن بن ضياء بن سباع الفزاري^(١٧٤).
- ٢ - محيى الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري الحافظ المشهور بالنووي (ت ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م)^(١٧٥). كان يتأدب في المدرسة على يد مدرستها ومعينها القاضي عز الدين أبو حفص عمر بن أبي غالب الأربلي.
- ٣ - أبو النجا بن خلف بن محمد بن محمد بن علي المصري الشافعي المولود سنة ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م وكان حياً سنة ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠ م^(١٧٦).
- ٤ - مصطفى بن ابراهيم بن حسن أويس المعروف بالأويس العلواني الشافعي الحموي (١١٠٨ هـ / ١٦٩٦ م - ١١٩٣ هـ / ١٧٧٩ م) حيث حمله والده على طلب العلم ونزل بالمدرسة البادرائية واشتغل بقراءة العلوم على أفاضل دمشق وعلى رأسهم الشيخ اسماعيل العجلوني مدرس البادرائية^(١٧٧).

-
- (١٧١) شذرات الذهب ٤١٣/٥/ السخاوي: الفرد البيع ٨١/١١ - ٨٣.
 (١٧٢) الدارس في تاريخ المدارس ٢١٢/١.
 (١٧٣) المرادي: سلك الدرر ٨٧/٢.
 (١٧٤) البكي: الطبقات الشافعية الكبرى ٤٥/٦.
 (١٧٥) الأستوي: طبقات الشافعية ٦٩/٢. النعيمي: الدارس ٢٠٨/١.
 (١٧٦) السخاوي: الضوء اللامع ١٤٤/١١.
 (١٧٧) وقد درس على مدرس البادرائية الشيخ إسماعيل العجلوني، أنظر في ذلك سلك الدرر للمرادي ١٤٢/٤ - ١٥٤.

٥ - عبدالرحمن بن مصطفى بن ناصر بن بيازيد الشفيعي الحلبي ثم الدمشقي المعمر (ت ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م) سيبويه زمانه. قدم به والده من حلب سنة ١٢٠٣هـ / ١٧٨٨م وهو طفل فنشأ بدمشق وأخذ عن علمائها منهم محمد أفندي نزيل المدرسة البادرائية^(١٧٨).

٦ - أبو السعود أفندي الغزي (١٢٣١هـ / ١٣١٧هـ): تلقى علومه على الشيخ حسن الشطي والشيخ عبداللطيف مفتي بيروت في المدرسة البادرائية ثم تولى المناصب في الدولة ومنها عضوية مجلس الشورى في بلاد الشام وله مؤلفات^(١٧٩).

٧ - عبدالقادر الخطيب (١٢٢١هـ - ١٣٢٤هـ): درس على يد علماء دمشق ومنهم محمد جميل الشطي مدرس البادرائية ونزيلها عبداللطيف مفتي بيروت وله مؤلفات عديدة لم يطبع منها شيئاً^(١٨٠).

٨ - الفقيه العالم زين الدين الحسباني: يقول ابن شهبة^(١٨١) (قدم دمشق طالباً وأقام بالبادرائية مدة طويلة...) وقد تضلع في الفقه حتى صار من أبرز فقهاء دمشق حيث تتلمذ على يده الكثيرون.

٩ - محمد بن سليم بن كامل الجدواني (٧٤٧هـ / ١٣٤٦م - ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) يقول ابن شهبة (وقدم دمشق فاشتغل بالبادرائية ولم يزل يدأب ويستغل وصار حتى فضل في الفقه وأخذ عن جدي وغيره من مشايخ العصر)^(١٨٢).

١٠ - علي بن موسى النبكي (ت ١١٩٢هـ / ١٧٧٨م) قال عنه صاحب سلك

(١٧٨) محمد جميل الشطي: أعيان دمشق ص ١٦٥.

(١٧٩) المصدر نفسه ص ٢٩ وص ١٩٦.

(١٨٠) المصدر نفسه ص ١٨٢ - ١٨٣ و ١٩٦.

(١٨١) ابن قاضي شهبة: تاريخه - مخطوط - مصور عن نسخة باريس برقم ٢/٩٩ بتاريخ ج ١ ورقم ١٣٨.

(١٨٢) نفس المصدر ج ١، ورقم ١٩٢.

الدر في ترجمته له (وقدم دمشق في بدايته بالقراءة بها واستقام مدة وكانت إقامته بالمدرسة البادرائية^(١٨٣)...) .

* * *

المكتبة:

قد يصعب إعطاء تصور متكامل عن مكتبة المدرسة البادرائية من حيث الاحصائيات الضرورية لبيان عدد مجلداتها ونظام الخزن فيها أو أسماء خزائنها والمشرفين. وذلك لندرة المعلومات المتيسرة في كتب التاريخ والتي قد لا تتعدى الذكر العابر لخزائنها المتواضعة بكتبها حيث يذكر ابن كثير مثلاً في أثناء ترجمته لمؤسس المدرسة قوله (وجعل فيها خزانة كتب حسنة ونافعة)^(١٨٤). وتناقل المتأخرون هذه العبارة في كتبهم دون الاضافة إليها رغم أن بعضهم أكد أن يد الزمان قد أتلف تلك الكتب حيث يقول صاحب كتاب منادمة الأطلال (وأما كتبها فلقد طارت بها أجنحة الفقدان في الأقطار والبلدان)^(١٨٥). لكننا إذا ما تفحصنا ترجمة مدرسيها ومعيديها ونظارها يمكن أن تهدينا إلى أن مكتبة المدرسة لم تبق على الحجم الذي كانت على عهد مؤسسها بل توسعت ونمت من خلال إنتاجات مدرسيها وبعض منتسبيها الغزيرة بالإضافة إلى الوقوف الخيرية لبعض العلماء. وقد نلمس ذلك بوضوح مما أورده ابن حجر العسقلاني في ترجمته لابراهيم بن عيسى الحلبي (ت ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م) حيث قال (كان معيداً في البادرائية وبذلك اشتهر... ونسخ كثيراً ووقف كتبه...)^(١٨٦). وما ذكره المرادي في ترجمته لعبدالله البصري (ت ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م) قوله (انتقل آخر عمره إلى حجرته في البادرائية..... وكان عنده كتب كثيرة معتبرة جعلها للعارية لا يمسكها عن مستفيد...) ثم

(١٨٣) المرادي: سلك الدرر ٢٥٦/٣.

(١٨٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٩٧/١٣.

(١٨٥) بدران: منادفة الأطلال ص ٨٨.

(١٨٦) ٢٩٢/١.

يقول (وتفرقت كتبه أيدي سبأ وضربتها يد الدهر)^(١٨٧). إلا أن هناك شبه إجماع لمن ذكر المدرسة البادرية بأن خزانة كتبها قد تبددت وتناثرت في الأقطار والبلدان شأنها شأن أغلب مكتبات المدارس الإسلامية وذلك أثر النكبات التي توالى عليها بعد سقوط بغداد على يد التتار يقول مصحح سلك الدور بآلم شديد (وللدهر عادة في تفريق الكتب وحبسها بيد الجهال)^(١٨٨).

ومن المؤكد أن المكتبات الإسلامية كانت في ذلك الوقت تتبع نظاماً في حفظ الكتب وخزنها وتبويبها وهو ما يسمى بالأرشفة الذي ورد في مصادرنا الأولية. وفي نفس الوقت كانت تضم إلى دارها ما يؤكد وجود ما تحتاجه المكتبات الإسلامية آنذاك.

الطرائق التعليمية وإجازاتها:

كانت المدرسة محفلاً علمياً يلتقي فيها الطلبة والعلماء الوافدين إليها من أرجاء البلاد العربية والإسلامية. ومكاناً تمتاز به الأفكار والمعارف يؤكد ذلك كثرة الطلبة المتخرجين منها بالإضافة إلى مساهمتها الغنية في إعداد الفرد العربي المسلم إعداداً صالحاً يحفظ للأمة فكرها الأصيل ويركز وجودها الحضاري الشامخ أمام الظروف الاستثنائية التي مر بها القطر السوري إبان السيطرة الفاطمية والسلجوقية ثم المملوكية واحتلال الصليبيين لأقسامها الجنوبية.

لذلك اهتمت المدرسة بالدراسات العقلية والنقلية^(١٨٩)، كما نصت شروط المدرسة على أن يكون التدريس فيها من الناحية الدينية والفقهية مقتصرأ على الفقه

(١٨٧) سلك الدرر ٨٧/٢.

(١٨٨) نفس المصدر والصفحة.

(١٨٩) البيطار: موجز حلية البشر ١٦٤١/٣.

الشافعي وأصوله^(١٩٠) وقراءة القرآن^(١٩١) والحديث^(١٩٢) وعلم الفرائض^(١٩٣) والمنطق بالإضافة إلى تدريس العلوم النحوية واللغوية والأدبية^(١٩٤) والجغرافية والتاريخية^(١٩٥) والحساب^(١٩٦) والفلك^(١٩٧) والنجوم. وشيئاً من الطب في بعض الأحيان^(١٩٨) ثم الأذكار والأوراد والطرق الصوفية^(١٩٩) وخاصة في عهدها المتأخرة. وما ورد في تراجم مدرسيها وتلامذتها أو المقيمين فيها من الأساتذة والأئمة والخطباء يؤكد لنا ذلك.

ومع أن المدرسة البادرية في نهجها العام قد أولت اهتماماً زائداً لتدريس العلوم الدينية والفقهية إلا أنها وكما مر لم تضعف اهتمامها بتدريس العلوم الأخرى

-
- (١٩٠) العلوي: مختصر تنبيه الطالب ص ٣٥، بدران: مناقدة الأطلال ص ٨٨، الحنبلي: شذرات الذهب ٢٦٩/٥ و ٣٣١، الذهبي: العبر ٣٦٧/٥، أبناء الغمر ٢٨٦/١، النعمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢٠٦/١ و ٢٠٧ و ٢٠٨، الأسنوي: طبقات الشافعية ١٨١/٢، ٢٢٨، اليافعي: مرآة الجنان ١٨/٤، ٢٤٨، أبو المحاسن المنهر الصافي ٨١/١، محمد جميل الشطي: أعيان دمشق ص ٢٨٦.
- (١٩١) ابن قاضي شعبة: تاريخه ج ١، ورقة ١٦٨، النعمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢٠٨/١، النعمي البيطار: موجز حلية البشر ١٦٤١/٣.
- (١٩٢) السيكي: طبقات الشافعية الكبرى ٦٠/٥، ٤٠/٦، ٢٤٨، الأسنوي: طبقات الشافعية ٢٧٦/١، ٨٨/٢، ٢٩٠، أبو المحاسن المنهل الصافي ١١٧/١، المرادي: سلك الدرر ٨٧/٢، الشطي أعيان دمشق ص ٣٠٥.
- (١٩٣) اليافعي: مرآة الجيان ١٣٧/٤، أبو المحاسن: المنهل الصافي ٨١/١، ابن قاضي شهبته: تاريخه ص ١٩٢، الحنبلي: شذرات الذهب ٤١٣/٥، عبدالرزاق البيطار ٣٣/١.
- (١٩٤) السيكي: الطبقات الشافعية الكبرى ٧٢/٥، ٤٥/٦، اليافعي: مرآة الجيان، ٢١٨/٤، النعمي/الدار في تاريخ المدارس ٢١٤/١، المرادي: سلك الدرر ٩٣/٢، ١٣١/٤، محمد جميل الشطي: أعيان دمشق ص ١٦٥.
- (١٩٥) المرادي: سلك الدرر ٨٦/٢.
- (١٩٦) محمد بهجة البيطار: موجز حلية البشر ١٦٤١/٣.
- (١٩٧) السخاوي: الضوء اللامع ١٨٢/١٠، محمد البيطار: نفس المصدر والصفحة.
- (١٩٨) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢١٣/١.
- (١٩٩) المحي: خلاصة الأثر ١٥٦/٢، المرادي: سلك الدرر ١٩١/٤، ١٩٢، ١٩٤، البيطار: حلية البشر ٧١٦/١، محمد الشطي: أعيان دمشق ص ١٥٠ و ٢٩٢.

حيث كانت هذه العلوم وغيرها تلقى من قبل مدرستها الذي كان يجلس على كرسي في ايوان المدرسة ومن حوله طلبته المتربعين على الأرض في حلقة دراسية^(٢٠٠) لا تملك تحديداً دقيقاً لمواعيد انعقادها، وربما قد تكون مرتبطة بمواعيد الصلاة. فهي إما أن تكون قبل أو بعد صلاة الفجر مثلاً أو بعد صلاة العصر^(٢٠١) على الأعم.

أما الجوانب الأخرى في مناهج المدرسة التعليمية كالفترة الدنيا والقصوى المطلوبة للدراسة فيها ومواعيد تعطيل التدريسات في المدرسة عدا أيام الأعياد الاسلامية المحددة بعيدي الفطر والأضحى والمولد النبوي ستبقى غامضة لدينا لعدم توفر المصادر الكافية عنها.

إن الأنماط التدريسية التي كانت متبعة في المدارس المعاصرة للبادرائية والمشابهة لها لا سيما النظامية في بغداد والعادلية الكبيرة والعادلية الصغيرة والظاهرية والقيمية في سوريا^(٢٠٢) قد تكشف لنا جوانب كثيرة من الغموض الذي يكتنف نظام البادرائية التعليمية. ولنأخذ على سبيل المثال المدرسة النظامية لا سيما وان مؤسس البادرائية كان من تلامذتها الأذكياء أولاً ثم أصبح من أساتذتها المرموقين آخرأ، وان المدرستين كانتا مختصتين بتدريس الفقه الشافعي لذلك نستطيع القول مثلاً ان وصف ابن جبير (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) لنظام التدريس في النظامية قد يكون مشابهاً إلى حد ما للنظام التعليمي الذي نشأت عليه البادرائية فيما بعد، حيث جاء في وصفه لأحد مجالس التدريس فيها قوله (وأول من شاهدنا مجلسه منهم الامام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية وفقهه النظامية والمشار إليه بالتقدم في العلوم الاصولية، حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة اثر صلاة العصر في يوم الجمعة... ويبدأ الطالب بالقراءة وكانوا يقرأون بتلاحين معجبه ونغمات مطربه ثم يبدأ الشيخ

(٢٠٠) ابن الصابوتي: اعلام الورى ص ٢.

(٢٠١) حسين أمين: المستنصرية ص ٨١.

(٢٠٢) بدر الدين الأربلي: محاسن دمشق - مخطوط المكتبة الظاهرية ورقة ١٤٧.

بتفسير الآيات ويتصرف في أفانين العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل وإيراد حديث رسول الله صلوات عليه والتكلم على معانيه (٢٠٣).

ويفهم من هذا النص ان الدرس كان في القرآن الكريم والتفسير وانه كان يعطى بالطريقة التقليدية التي كانت متبعة في مدارس القرن السابع للهجرة والمعروفة بمبادرة الطلاب إلى قراءة النص القرآني وبعد ذلك يتولى المدرس شرح النص وتفسيره بما لديه من أدلة وشواهد مستعيناً على ذلك بالحديث النبوي الشريف وآراء السلف وكبار علماء العصر. ثم يفسح للطلاب حرية توجيه الأسئلة الشفوية والتحريرية وهم في كل ذلك يملون عن أستاذهم ما يقول وبهذا الصدد يذكر ابن جبير قائلاً (ثم رشقت شاييب المسائل من كل جانب فأجاب وما قصر وتقدم وما تأخر ورفعت إليه عدة رقاع فجمعها جملة في يده وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينيز بها إلى أن فرغ منها وحان المساء فنزل وافترق الجميع فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقوراً هنياً ظهرت فيه البركة والسكينة (٢٠٤). فمثل هذه الأسئلة والمناقشات إذن كانت تتطلب من المدرس أن يكون ممتلاً بالحجج المقنعة والأدلة الوافية للرد على أسئلة طلابه (٢٠٥).

ومن الجدير بالذكر أنه رغم توفير الحرية الكاملة للطلاب في طرح أسئلتهم على مدرّسهم إبان المحاضرة إلا أنه كان لتوجيه السؤال من قبل الطالب إلى أستاذه ومناقشته له آداب خاصة تكفل للأستاذ هيئته ووقاره وللطالب حرية رأيه وتحمي له سبيل الاستفادة، ومن الآداب المتبعة أيضاً أن لا يهزأ المدرس برأي الطالب ولا يزدري المساكين منهم (٢٠٦).

لكن المتتبع لتطور مراحل التدريس في مدارس ذلك العصر يجد أن هذه الحرية ربما كانت تخضع للمؤثرات في الأوضاع السياسية القائمة فصاحب الحوادث

(٢٠٣) ابن جبير: الرحلة - مطبعة عبد الحميد حنفي - مصر ١٩٣٧م ص ١٧٤.

(٢٠٤) نفس المصدر والصفحة.

(٢٠٥) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ٢٤٣.

(٢٠٦) حسين أمين: المدرسة المستنصرية - مطبعة شفيق - بغداد ١٩٦٠ ص ٢٩٠.

الجامعة يؤكد بأن عصر المستعصم بالله العباسي قد شهد تدخل الخلافة والوزارة في أمر تدريس العلوم العقلية والنقلية - عدا تدريس القرآن - وذلك بالطلب إلى المدرسين بأن لا يذكروا شيئاً من تصانيفهم ولا يلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها بل يذكروا كلام المشايخ السابقين تأدباً معهم وتبركاً بهم^(٢٠٧). لذلك نجد الموضوعات التي كانت تدرس في البادرائية قد خضعت منذ تأسيس المدرسة للخط السائد في عصر المستعصم لا سيما وإن البادرائي كان من أول الملتزمين بها والمطبقين لتلك التعليمات لأنه أكثر الناس قرباً للخليفة المستعصم الذي اتخذ منه سفيراً للخلافة ثم قاضياً لقضاة بغداد، وما يؤكد ذلك لجوء عدد من مدرسي المدرسة البادرائية إلى إعداد المختصرات والتعليقات لكتب المشايخ السالفين التي اعتمدها للتدريس نذكر منها مثلاً (مختصر البحر للرويانى)^(٢٠٨) لكمال رسلان وشروح عبدالرحمن الفراري على (التنبية وورقات إمام الحرمين في أصول الفقه وقطعة من التعجيز)^(٢٠٩) و(مختصر المزني لإسماعيل بن يحيى المزني المتوفي سنة ٢٦٤هـ) الذي حفظه مدرس البادرائية كمال الدين بن الشيрази^(٢١٠) و(شرح تيسير الفتاوى من تحرير الحاوي) لشرف الدين ابن البابا^(٢١١) و(شرح الحاوي الصغير) وشرح مختصر ابن الحجاب في الأصول لضيء الدين الطوسي^(٢١٢). وتعليقة برهان الدين الفراري على التنبية لأبي اسحاق^(٢١٣). وغير ذلك.

كان مدرس البادرائية موصوفاً برعايته لشؤون طلابه ويضفي عليهم العطف والحنان ويشرف على دراستهم ويتصرف معهم بتأدب واحترام غير مستهزئ برأي

-
- (٢٠٧) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ٢١٦.
(٢٠٨) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٣٣٢/٥.
(٢٠٩) السيكي: طبقات الشافعية الكبرى ٦٠/٥ - ٦١.
(٢١٠) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢٠٩/١.
(٢١١) نفس المصدر ٢١٣/١.
(٢١٢) السيكي/طبقات الشافعية الكبرى ١٢٥/٦، الأسنوي/طبقات الشافعية ١٨١/٢
ابن كثير/البداية والنهاية ٥٣/١٤، اليافعي/مرآة الجنان ١٦٦/٤.
(٢١٣) الأسنوي/طبقات الشافعية ٢٩٠/٢، البغدادي/هدية العارفين ١٤/١.

أحد منهم ولا كارهاً لأحدهم على الفهم ولا مزدر للمساكين منهم وإلى هذه العلاقة النبيلة يشير الذهبي في ترجمته لعز الدين الأربلي معيد البادرانية بقوله (وكان النواوي رحمه الله تعالى يتأدب معه. ربما قام وملاً الأبريق ومشى به قدماه للطهارة)^(٢١٤). ويصف ابن طولون الصالحى جمال الدين الشريشي بالفضيلة وحسن المحاضرة ودمائة الأخلاق مع طلابه^(٢١٥) وهذه الصفة نسبت إلى مؤسس البادرانية من قبل^(٢١٦). وعرف تاج الدين عبدالرحمن الغزاري بأنه كان (لطيف الطباع مع طلابه)^(٢١٧) (أما ابنه برهان الدين الغزاري فكان بحق يحوي جميع خصال المربي الناجح حيث يقول أبي المحاسن (وفيه طول روح على تفهيم الطالب. وكان لطيف المزاج)^(٢١٨) ويقول السخاوي في ترجمته لأبي بكر بن حريز المعروف بالنقي الحصري (وكان خفيف الروح منبسطاً له نوادر ويخرج مع الطلبة إلى النزهة ويبعث الطلبة على ذلك...)^(٢١٩) كما كان علاء الدين العذراوي (من الملازمين للإفادة للطلاب وانتفع به جم غفير)^(٢٢٠).

والظاهر أن بعض الطلاب كانوا لا يكتفون بالحفظ والفهم والسؤال والمناقشة من مدرس البادرانية فحسب بل كانوا يطرقون أبواباً أخرى يشدون بها العلم سواء لدى أساتذة المدرسة الزائرين أو المقيمين في حجرها، وربما قصدوا مدارس دمشق الأخرى وقد تدفعهم الرغبة في طلب العلم إلى الرحلة إلى بغداد أو القاهرة للالتقاء بعلماء تلك البلدان. فقد عرف عن عبدالله بن عمر بن محمد المعروف بالأفيوني الحنفي الطرابلسي أنه تلقى دروسه على يد والده في البادرانية واتصل بعلماء دمشق ثم رحل إلى حلب ومنها إلى القدس للاتصال بالاستاذ الشيخ مصطفى الصديقي ثم

(٢١٤) نقلاً عن الدارس في تاريخ المدارس للنعماني ٢٠٨/١.

(٢١٥) القلائد الجوهريّة في ص ٩١.

(٢١٦) اليافعي/مرآة الجنان ١٣٧/٤.

(٢١٧) الأسنوي/طبقات الشافعية ٢٨٨/٢.

(٢١٨) أبو المحاسن/المهل الصافي ٨١/١.

(٢١٩) السخاوي/الضوء اللامع ٨١/١١ - ٨٢.

(٢٢٠) المرادي/سلك الدرر ٢٦٠/٣.

عاد بعد ذلك بأشهر إلى دمشق^(٢٢١). ومصطفى العلواني الذي أخذ عن الشيخ اسماعيل العجلوني وعبد الغني النابلسي وعبد الله البصروي^(٢٢٢)، ومصطفى البكري الذي تنقل بين دمشق وحلب والقدس وعاد ثانية إلى مدرسته البادرية بعد أن تزود من علم علماء هذه المدن أمثال عبدالرحمن بن محي الدين السلمي الشهير بالجلد. والشيخ محمد أبي المواهب الحنبلي الذي حضر له شرح صحيح البخاري للحافظ بن حجر. ومحمد بن إبراهيم الدكدكجي الذي درس عليه الاستعارات وأخذ أيضاً عن الملا الياس ابن ابراهيم الكوراني كما لازم الشيخ عبد الغني إسماعيل النابلسي وقرأ عليه التدبيرات الالهية^(٢٢٣). وزين الدين الحساباني^(٢٢٤) وغيرهم.

ولم تقتصر الرحلات على طلاب المدرسة البادرية فقط بل شملت مدرسيها ومعيديها أيضاً كالشيخ نجم الدين مؤسسها ومدرسها الأول الذي تنقل بين بلدان الخلافة لأسباب دبلوماسية وعلمية واتصل بالشيوخ من علمائها وطلاب العلم فيها فسمع منهم وأسمعهم بما لديه من علوم وذلك عبر حلقات الحديث والمناظرات العلمية التي عقدها في تلك الديار كحلب ودمشق ومصر وبغداد والموصل. ففي القاهرة سمع منه نور الدين علي بن عمر الصوفي^(٢٢٥). وفي دمشق حضر الملك الناصر يوسف أول درس ألقاه في مدرسته البادرية^(٢٢٦). وفي الموصل ناظر فقهاء سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ومنهم أبي القاسم عبدالرحيم بن محمد المعروف بابن يونس الموصلية صاحب التعجيز في مختصر الوجيز^(٢٢٧). كما سمع هو من عبدالعزيز بن منينا^(٢٢٨).

(٢٢١) نفس المصدر ٤/٣٩٢.

(٢٢٢) نفس المصدر ٤/١٤٢.

(٢٢٣) نفس المصدر ٤/١٩٠١.

(٢٢٤) ابن شهبة - تاريخه - مخطوط مصور ج ١ ورقة ١٣٨.

(٢٢٥) تاريخ جليل - مخطوط المجمع العلمي العراقي ١/٦٧.

(٢٢٦) ابن كثير/البداية والنهاية ١٣/١٩٦.

(٢٢٧) السيكي/طبقات الشافعية الكبرى ٥/٧٢.

(٢٢٨) الذهبي/العبر ٥/٢٢٣.

أما الشيخ شهاب الدين بن جهبل فقد تنقل بين القدس ودمشق^(٢٢٩). وكمال الدين بن الشريشي فقد رحل في طلب العلم أو إلقاء المحاضرات العلمية إلى مدن كثيرة منها دمشق وحمص والقاهرة التي توجه إليها سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٧م وبعدها قفل راجعاً إلى مدرسته البادرائية^(٢٣٠). والياس بن ابراهيم الكردي طلب العلم في بلاده على جماعة منهم الشيخ مصطفى البغدادي بن العزاب والشيخ أبو السعود القباقي وغيرهما ثم رحل إلى دمشق فقرأ على جماعة من مشايخها منهم نجم الدين الفرضي وعبدالقادر العصفوري ومحمد البلباني الصالحى وابراهيم القتال وحيدر الكردي^(٢٣١) وغيرهم والشيخ محمد القبرستاني الذي (شد الرحال إلى دمشق سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م وقرأ على كبار شيوخها كالجلبى والطيبى والكزيرى والخانى وعاد إلى مصر سنة ١٣٦٠هـ/١٩٤١م فدخل الأزهر وانقطع للتحصيل فيه ثم رجع إلى الشام واستوطن دمشق)^(٢٣٢).

ومن الجدير بالذكر ان الطلاب في رحلاتهم هذه كانوا ينالون رعاية وعناية بلدان الخلافة الاسلامية التي يأمنون مساجدها ومدارسها أو ربطها وخوانقها المنتشرة في أرجائها، حيث كانت مفتوحة على الدوام لطلاب العلم وشيوخه، ويقدم ابن جبير في رحلته نموذجاً لذلك من خلال مشاهداته في مدينة الاسكندرية^(٢٣٣) لذلك أعطت الرحلة في طلب العلم عبر العصور الاسلامية فوائد جمة يحدثنا عنها ابن خلدون في مقدمته قائلاً (ان الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاءً، وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة إلا أن حصول الملكات على المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها)^(٢٣٤).

٢٢٩) النعمي/الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٢١١.

٢٣٠) نفس المصدر/والصفحة.

٢٣١) المرادي / سلك الدرر ١/ ٢٧٢ - ٢٧٣.

٢٣٢) البيطار موجز حلية البشر ٣/ ١٦٤١.

٢٣٣) الرحلة ص ١٠.

٢٣٤) الطبعة الكاثوليكية - بيروت ص ٥٣٩.

واستكمالاً لما ذكرنا حول المنهج التعليمي للمدرسة البادرائية لا بد من الإشارة إلى الاجازات التي كانت تمنح للطلاب من قبل أساتذتهم وهي تمثل الأذن^(٢٣٥) الذي يخول الطالب المتخرج حق ممارسة تدريس أو رواية ما سمعه أو تلقاه عن شيخه أو أستاذه.

وهذا الأذن يُعطي عادة بعد فراغ الطالب أو الفقيه من دراسته كتاب ما أو موضوع ما على يد شيخه فيجيز له الأخير تدريس أو رواية ما درس.

لكن الاستاذ المانح للاجازة كان حريصاً على صياغة نصها لأنه هو لا المدرسة كان يتحمل مسؤولية المنح لذلك كان يكتب النص بصيغة يؤكد له براءته مما قد يعرض من سهو أو تحريف أو غلط أو تصحيف. علماً بأن تحرير الاجازة من قبل الشيخ أو الاستاذ كان يتم بعد أن يقدم له الطالب التماساً يطلب فيه منحه الاجازة أو الأذن فيقوم الاستاذ حينذاك بتحريرها بأسلوبه الخاص الذي عرف في القرن السابع الهجري وما بعده بالتطويل والتزويق والتنميق خلافاً للقرون السابقة.

وتأتي أهمية الاجازة في كونها تميز الطالب الذي ينجز دراسته على يد شيخ عن غيره ممن كان ينفرد بالتعليم معتمداً على نفسه في قراءة الكتب والذي كان يسمى عادة بالصحافي^(٢٣٦) المغفل انقاصاً لقدرته وأهليته العلمية.

ومن المفيد هنا أن نذكر جملة من الاجازات التي منحها أساتذة البادرائية لطلابهم حيث منح نجم الدين البادراني إجازة لشرف الدين بن البازي قاضي قضاة حماة الذي انتهت إليه مشيخة المذهب ببلاد الشام^(٢٣٧) وأجاز الشيخ تاج الدين الفزاوي ابنه برهان الدين الفزاوي الذي كان ملازماً له في طلب العلم والنحو الحديث^(٢٣٨). ويذكر محمد بن طولون الصالح في ترجمته لجمال الدين

(٢٣٥) يقول الفيروز بادي/أجاز له لغةً (سوغ له واستجاز طلب الإجازة أي الأذن) أنظر قاموس المحيط ١٧١/٢.

(٢٣٦) لقد نعت الجاحظ أحمد بن عبد الوهاب حينما أرد هجاء، والسخرية به بأنه (كان قليل السماع غمراً وصحافياً غفلاً) - أنظر رسائل الجاحظ - جمعها السندوبي، ص ١٨٧.

(٢٣٧) السيكي: طبقات الشافعية الكبرى ٢٤٨/٦.

(٢٣٨) نفس المصدر ال ٤٥/٦.

الشريشي قوله (أحضر على جماعة وأجاز له آخرون) (٢٣٩). وأجاز الشيخ عبداللطيف بن حسام الدين الحلبي تلميذه مصطفى البكري سنة ١١٢٠هـ/١٦٩٨م حيث يذكر المرادي ذلك بقوله (وأذن له شيخه المرقوم بالمبايعة والتخليف سنة عشرين أذنًا عامًا) (٢٤٠). وقد أشار محمد بهجة البيطار بأن الشيخ محمد جميل الشطي درس على عدد من علماء دمشق وقد (استجاز بعض الشيوخ إجازوه) (٢٤١). وهذا يدلنا على أن الطالب الواحد ربما كان يحصل على أكثر من إجازة تبعاً للعلوم التي يدرسها على مشايخه أي تتعدد بعدد الشيوخ الذين كان يدرس على أيديهم (٢٤٢).

تطورها وأثرها الثقافي :

سبق أن ذكرنا أن المدرسة البادرائية أسست سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م وفتحت في العام نفسه لتدريس الفقه الشافعي. وكان يوم الافتتاح عظيمًا وقد ألقى بها مؤسسها الدرس الأول بحضور الملك الناصر صلاح الدين يوسف وسائر أرباب الدولة والعلماء والقضاة ومد بها سماط عظيم (٢٤٣) وقرئ نظام المدرسة ضمن كتاب الوقف وتم تعيين مدرستها ومعيديها وناظرها وباقي الموظفين فيها حيث رتب جمال الدين عبدالرحمن البادراني بن مؤسسها مدرساً لها بعد والده وجعل وجيه الدين محمد بن سويد التكريتي ناظراً في مصالح المدرسة البادرائية وثبت فيها معيدين. أحدهما الشيخ كمال الدين رسلان بن الحسن الأربلي والآخر الشيخ نجم الدين الموقاني (٢٤٤) ورتب لها خازن يشرف على خزانة كتبها لم تذكر لنا المضان اسمه (٢٤٥). وبذلك تكاملت

(٢٣٩) القلائد الجوهريّة ف ١، ص ٩١.

(٢٤٠) سلك الدرر ١٩١/٤.

(٢٤١) أنظر حلية البشر ٧١٦/١.

(٢٤٢) أنظر حسين أمين: المدرسة المستنصرية. الملحق السادس - نماذج إجازات وسماعات

مختلفة للقرن السابع الهجري ص ١٥٠.

(٢٤٣) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٢٥٩/١.

(٢٤٤) نفس المصدر ٧١/١.

(٢٤٥) النعيمي: المدارس في تاريخ المدارس ٢٠٧/١.

المدرسة ونظمت إدارتها وأصبحت مهينة للاستمرار في أداء رسالتها الثقافية بصورة منتظمة وعلى عدد معلوم من الطلبة.

وبالفعل فقد ظلت المدرسة تؤدي مهمتها التعليمية سنين طويلة وتولى التدريس فيها فطاحل المدرسين من كبار العلماء والادباء والفقهاء وسكن حجرها عدد غفير من شيوخ العلم وبحائه وأدت رسالته العلمية بصورة مرضية حتى النصف الأول من القرن التاسع الهجري. لكن المسيرة الناجحة هذه تعرضت إلى انتكاسات وإخفاقات عديدة وبشكل خاص بعد تعرض سوريا إلى هجمات التتار الوحشية التي شملت الشرق العربي وكانت آخرها حملة تيمورلنك ليليل جنكيزخان سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م على بلاد الشام حيث أبيحت على يده مدينة حلب مدة ثلاثة أيام للنهب والسلب وقتل منها ٢٠ ألف مواطن (عفت آثار مدارسها الى الأبد) (٢٤٦). ثم اجتاحت القوات الغازية مدينة دمشق وأشعلت فيها النيران حتى شملت جامعها الكبير الذي احتمى به أكثر من ٣٠ ألف مواطن وجاءت النار على جميعهم... وبذلك فقدت دمشق القيادة في فنون الزخرفة الدمشقية (٢٤٧).

واستمر عصر الاضطراب ملازماً لسوريا فقد انتقل صراع المماليك مع تيمورلنك الذي مات سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م وخلفاءه من بعده إلى المماليك أنفسهم إذ نشب التنافس السياسي والعسكري بينهم وبين السلطة العثمانية على السيادة في آسيا الصغرى حيث بلغت حدتها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي لكن السلطان سليم الأول استطاع أن يحقق نصراً ساحقاً على جيش المماليك في ٢٤ آب سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م في معركة مرج دابق الدموية شمال مدينة حلب كما هيا له هذا النصر أن يتجه في أواسط تشرين الأول نحو دمشق ويدخلها بيسر وبذلك انتقلت سوريا إلى يد الأتراك وقدر لها أن تبقى بيدهم أربعة قرون كاملة (٢٤٨).

(٢٤٦) فيليب حتي: تاريخ سوريا ٢/٢٩٦.

(٢٤٧) أنظر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة م ٦ ف ٢ ص ١٤، ٥ و ٥٠، المقرئزي السلوك في حدقة دور الملوك ٢، ٢٤١.

(٢٤٨) أنظر فيليب حتي: تاريخ سوريا ص ٢٩٧ و ٢٩٨ و ٢٩٩.

إن هذه الظروف السياسية التي اكتنفت القطر السوري قد جعلت مدارسها بدون شك تعيش سباتاً علمياً ويعم الخراب عماراتها حتى ملأ التشكي بطون الكتب يؤيد ذلك ما ذكره ابن قاضي شهبه في تاريخه بقوله (تأثرت المدارس بالحروب والفتن وحالات الاهیال التي شملت الشام وقد أظهر مسؤولیها كثیر من التشكي) (٢٤٩) وإذا نظرنا إلى ما أورده صاحب مخطوط (نزهة الأنام) عما أصاب مدارس دمشق وأهلها من دمار وخراب نكون قد وقفنا على حقيقة الحال إذ يقول في نص مُطول مهم (... حتى ان بها قصبة دون ميل تمشي فيها ما بین ترب ومدارس... استولت علیها المباشرين والنظار فأزالوا منها العین ولم یبق سوى الآثار فكم من مدرسة قد اندرست بعد الصلاة والتراویح وأمست في ظلمة بعد تلك المصاییح وهي تقول أصبحت حاصلاً بعد ما كان ایوانی بالقراءة عامراً أهلاً وهذه تقول أصبحت مربوطاً للبهائم بعدما كنت معبداً للصایم والقایم وهذه تقول اتخذونی مسکناً وهذه تقول جعلونی متبناً وهذه تقول حرثوا جداری وباعوا الباب وجعلونی مأوی للكلاب والأوقاف تستغیث إلى المولی... (٢٥٠).

والحقیقة ان مرور المدارس بهذا النمط من الاهیال جعل المتولی على الوقف یتصرف في المدرسة وفي أوقافها وجهاتها كما یرید حيث شملت التجاوزات أبنیتها فحولت في بعض أقسامها إلى منازل سكنیة (٢٥١) وأدى هذا التدهور إلى انخفاض مستوى التعلیم فيها وتصدر من لیس مؤهلاً للتدریس في ایواناتها حيث یذكر البورینی أحوال المدارس ومن یدرس فيها في عصر الشیخ أحمد الحلبي الشهیر بابن الملا وهو من رجال القرن العاشر الهجري فیقول (ولما رأى العالم قد صار للجاهل مطلوباً، وأصبح العالم مغلوباً، بحيث أن العلماء ضاعوا بین الجهال وسقطت مرتبتهم إلى الخضیض بعد المنزل المتعال، وأصبحت المدارس تباع لمن یدرسها ولا یدرس فيها وطارت معانی الكتب في آفاق الضیاع من قوادمها إلى خوافیها، وكبر

(٢٤٩) نسخة مصورة عن نسخة باريس ٢/٩٩ ج ١ ورقة ١٧٦.

(٢٥٠) المؤلف مجهول/مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق - رقم ٥١٢٥ تاريخ ورقة ١١٧.

(٢٥١) البورینی (الحسن بن محمد): تراجم الأعیان - تحقیق صلاح الدین المنجد - دمشق ١٩٥٩م/١/٥٦.

الجهلاء العمائم، حتى ارتفعوا إلى الغمام، وقطنوا لجهلهم فيما كان ينزله العلماء من المعالم، تخلّى عن المناصب، وما تجلّى منصات المراتب، بل ترك التدريس ودرسه، ونسي الدرس وما درّسه (٢٥٢).

وأنشد محب الدين في هذا الصدد قول دعلب الخزاعي :

مدارس آيات خلت عن تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات (٢٥٣)

ومن الغريب ان بعض مدرسي المدارس كانوا يتصفون بعجمة اللسان والبيان وقلة الذكاء وضعف المؤهل لهذه المهنة حتى نقل أن تدرّس مدرسة ابن الجوزي في دمشق قد أخذت من أبي بكر بن محمد بن محمد تقي الدين بن صفى الدين الشافعي المعروف بالزهيري (ت ١٠١٢هـ) وأعطى إلى رجل أعمى يدعى موسى وهو رومي اللسان أعجمي البيان فكتب علماء دمشق محضراً أكدوا فيه عدم أهليته للتدريس بل أطلالوا وجالوا في ميدان ذمه وصالوا وما تركوا له أدباً صحيحاً وأنشد العلامة محب الدين بهذا الصدد قائلاً :

تصدر للتدريس كل مهوس بليد يسمى بالفقيه المدرس
فحق لأهل العلم أن يتمثلوا بيت قديم شاع في كل مجلس
لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس (٢٥٤)

وليس بمستغرب إذاً أن نرى نجم البادرية العلمي يأفل في هذه الفترة من الزمن حتى أصبحت مكاناً منعزلاً تؤدي فيها الطرائق الخلوتية والصوفية والمولوية والأذكار والأوراد وهي بذلك تستقطب على وجه الخصوص رواد هذه الفنون من أنحاء مختلفة لتستقر في حجرها وتشتغل بإيوائها ومسجدها (٢٥٥).

(٢٥٢) نفس المصدر ١/ ١٨٠.

(٢٥٣) محمد المحي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر - دار صادر - بيروت ١/ ٩٤.

(٢٥٤) نفس المصدر والصفحة.

(٢٥٥) أنظر المرادي: سلك الدرر في ترجمة مصطفى البكري ١٩١/٤ و١٩٢ والبيطار: حلية

البشر في ترجمة صالح الباقي ١/ ٧١٦.

لكن ارتحال عائلة الشطي التجارية من بغداد إلى بلاد الشام واستقرارها في دمشق كان بداية جيدة للنهوض بالمدرسة البادرانية من جديد وشد عضدها نتيجة للاهتمام التي أولتها هذه العائلة بشؤون المدرسة حيث تولت (نظارتها وتدريسها وامامتها وخطبتها)^(٢٥٦). في الفترة من (١١٨٠هـ/١٧٦٦م - ١٣٥٢هـ/١٩٣٢م) وبذلك غدت معقلاً ومركزاً من مراكز الامتحانات الرسمية في زمن الدولة العثمانية^(٢٥٧). يؤكد ذلك صاحب كتاب منتخبات التواريخ بدمشق بقوله (وهي باقية عامرة لطلبة العلم بتولية بني الشطي)^(٢٥٨).

ولا تزال المدرسة تؤدي رسالتها العلمية حيث يقرأ في مسجدها الفقه الحنفي والوعظ والارشاد كجزء من أعمال جمعية الفتح الاسلامي في دمشق^(٢٥٩) كما شهد ايوانها دروساً متفرقة أقيمت على بعض طلبة العلم في النحو واللغة^(٢٦٠).

وقد شملت المدرسة يد التعمير غير المهندس من قبل مديرية أوقاف مدينة دمشق بعد سنة ١٩٦٣م والذي كان سبباً في إعفاء كثير من آثارها التاريخية، مما دفع بمديرية الآثار العامة في دمشق الاعتراض على تلك الترميمات بكتابها المرقم ١٩١٤/٥ والمؤرخ في ٢٨/٥/١٩٦٨^(٢٦١).

(٢٥٦) بدران: مناداة الأطلال ص ٨٨، صالح فرفور: الدر المنثور ص ٣٤.

(٢٥٧) صالح فرفور: الدر المنثور ص ٣٤.

(٢٥٨) الحصني (محمد أديب آل تقي الدين): تقديم كمال سلمان الصليبي - منشورات دار الآفاق - بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م طبعة أولى، ج ٣، ص ٩٤٤، البيطار: حلية البشر ١٥٩٤/٣.

(٢٥٩) أنظر أعمال جمعية الفتح الاسلامي بدمشق سنة ١٩٦٠ المنشورة في نهاية كتاب الدر المنثور لصالح فرفور صفحة (ك).

(٢٦٠) ألقى الشيخ محمد أحمد الدهمان دروساً في شرح ابن عقيل وألفية ابن مالك. صرح بذلك الشيخ نفسه في مقابلتي الشخصية له في داره الكائنة في حي الرمانة المقابل لجامع حسن بدمشق وذلك في الساعة الثامنة من مساء يوم الثلاثاء الموافق ٢٢/٧/١٩٨٠.

(٢٦١) أجابت مديرية الأوقاف على كتاب مديرية الآثار العامة بكتابها المرقم ٤٤٥٠ في ١٣٨٨/٣/١٩٦٨هـ/١١/٦. مدعية أن الترميمات لم تتعرض للأقسام الأثرية ضمن المدرسة... أنظر سلسلة من المراسلات بين الأطراف المعنية بالأمر والمحافظة جميعها في إضبارة المدرسة البادرانية في مديرية الآثار العامة بدمشق تحت رقم ١٠٣.

وإذا كانت هذه الصورة رغم اقتضاها تمثل التطور الذي شمل البادرائية منذ تأسيسها وحتى الآن، فما هو إذن أثرها الثقافي على المجتمع الدمشقي بشكل خاص والعربي بشكل عام؟

الحقيقة إن ما ذكرناه عن البادرائية قد يوضح لنا جانباً مهماً من أثر المدرسة الثقافية وفي كونها لعبت دوراً كبيراً في استقطاب طلبة العلم ورواد المعرفة لا سيما وأن المدرسة قد فتحت أبوابها لجميع الراغبين في التبع العلمي بدون استثناء وبذلك أكدت كتب التاريخ ضخامة جمهور المتخرجين منها حيث يقول صالح الفرغوري مثلاً (أنجبت عدداً كبيراً من العلماء النحارير والأئمة والخطباء والمدرسين)^(٢٦٢). كما أن الحضور في محاضراتها العلمية لم يقتصر على طلاب المدرسة فقط بل كان يحضرها أعداد غفيرة من (الفقهاء والقضاة وغيرهم)^(٢٦٣). وأن البعض من خيرة علماء دمشق وقضاتها وأساتذتها قد تخرجوا من البادرائية ودرسوا على مدرسيها نذكر منهم على سبيل المثال عبدالرحيم بن عبدالكريم والقاضي زين الدين النداوي قاضي زرع^(٢٦٤) والشيخ عبدالقادر الخطيب وأبي السعود أفندي الغزى^(٢٦٥)، حتى أن محمد جميل الشطي يؤكد ذلك من خلال ترجمته لمدرسي المدرسة وأساتذتها^(٢٦٦).

ومن جهة أخرى فإن كثيراً من العلوم بالإضافة إلى الفقه الشافعي وأصوله قد درست في البادرائية لا سيما في فترة ازدهارها.

وبالطبع إن هذه العلوم التي درسها الطلاب قد نقلت إلى بلدانهم بعد استكمال تحصيلهم العلمي فيها. وبذلك تكون المدرسة البادرائية قد أدت رسالتها الثقافية على أحسن وجه وساهمت بإضافتها الغنية لما قدمته غيرها من مدارس دمشق خاصة وإن المؤرخين يضعون البادرائية على رأس تلك المدارس أو في مقدمتها فيقول

(٢٦٢) الدر المنثور ص ٣٤.

(٢٦٣) تاريخ جليل - مخطوط المجمع العلمي العراقي ١٥٧/١.

(٢٦٤) أبي قاضي شهبة: تاريخه ج ١، ورقة ١٣٨.

(٢٦٥) الشطي: أعيان دمشق، ص ١٩٦.

(٢٦٦) نفس المصدر والصفحة.

اليونيني (وهي من أحسن مدارس دمشق لا بل أحسنها على الإطلاق)^(٢٦٧). كما يجعلها بدر الدين الأربلي إحدى أربعة مدارس شافعية بارزة في دمشق هي العادلة الكبيرة والعدالية الصغيرة والظاهرية والبادرائية^(٢٦٨).

فمن هنا نستطيع أن نحدد أهمية المدرسة العلمية وإشعاعها الفكري والثقافي في الوسط الاجتماعي الذي نشأت فيه. وفي نفس الوقت ان هذا المزيج الفكري الذي تميزت به البادرائية طوال حياتها قد يبدد لنا كل تصور خاطيء عن كونها بقيت منغلقة فكرياً على تدريس الفقه الشافعي فقط بل العكس هو الصحيح إذ أن استعراضنا لتطور المدرسة عبر مراحلها التاريخية يؤكد على أنها لم تبق مكرسة لدراسة الفقه الواحد وإنما تحولت بمرور السنين إلى مدرسة يدرس فيها أكثر من فقه لا سيما الفقه الحنفي وذلك طوال السيطرة العثمانية على البلاد الشامية. وبالفعل فقد درس فيها جملة من أساتذة الفقه الحنفي أمثال عبدالله بن محمد المعروف بالأفيوني الحنفي البطرابلسي (ت ١١٥٤هـ)^(٢٦٩) ومصطفى بن كمال الدين بن علي بن عبد القادر الصديقي الحنفي الدمشقي البكري^(٢٧٠) (١٠٩٩ - ١١٦٢هـ) والشيخ عبداللطيف بن علي بن عبدالكريم الحنفي البيروني ثم الدمشقي الشهير بمفتي بيروت المتوفي في منتصف القرن الثالث عشر للهجرة^(٢٧١). ومحمد أفندي بن عبدالله الرومي أصلاً والحنفي شهرة^(٢٧٢). والشيخ يحيى الشهير بالسردست الحنفي الدمشقي^(٢٧٣)، حتى قال صالح فرفور «جامع البادرائية في العمارة الجوانية: يقرأ فيه الفقيه الحنفي والوعظ والارشاد»^(٢٧٤).

(٢٦٧) ذيل مرآة الزمان ١/٧٢.

(٢٦٨) الأربلي: بدر الدين الحسن بن أحمد بن زفر - محاسن دمشق - المكتبة الظاهرية - بدمشق ٦٦٩/٢ تاريخ ورقة ١٤٧.

(٢٦٩) المرادي - سلك الدرر ٢/٩٣.

(٢٧٠) نفس المصدر ٤/١٩٠ - ٢٠٠.

(٢٧١) الشطي: المصدر السابق ص ١٩٥ - ١٩٦.

(٢٧٢) نفس المصدر ص ٢٤١.

(٢٧٣) نفس المصدر ص ٢٩٢.

(٢٧٤) أنظر الفقرة (٧) من أعمال جمعية الفتح الاسلامي بدمشق الملحقه بالدر المنثور صفحة (ك).

وإذا علمنا أن عائلة الشطي كانت من شيوخ المذهب الحنبلي في دمشق منذ نهاية القرن الثاني عشر للهجرة ومنهم على وجه الخصوص الشيخ مصطفى بن محمود الشطي البغدادي الأصل الحنبلي الدمشقي^(٢٧٥)، وحسن بن عمر الشطي^(٢٧٦) والشيخ جميل الشطي الدمشقي مفتي الحنابلة بدمشق^(٢٧٧). ويقول عنه صاحب الضياء الموفور ما نصه (عين إماماً للحنابلة في مسجد بني أمية بدمشق وندب للخطبة في مسجد البادرية سنة ١٣٥٢هـ)^(٢٧٨). والشيخ أحمد الشطي مفتي الحنابلة بدمشق الذي تولى وظيفة التولية والتدريس في المدرسة البادرية^(٢٧٩). يمكننا القول بأن المدرسة لم تبق مغلقة على تدريس فقه الشافعي الذي تأسست عليه.

ويمكن أن نضيف دليلاً آخر لما مر وهو أن وجود محراب ثان مغلق بجوار المحراب الأصلي في مسجدها قد يقودنا إلى القول: إن هذا المحراب المستحدث في العهد العثماني كان يمثل مصلي إمام الحنفية بجوار محراب إمام الشافعية على الرغم من أن الشيخ محمد أحمد الدهمان فسر ذلك على أن استحداث المحراب الثاني كان من قبل بعض المهترئين من الجنديّة العثمانية.

وبعد كل هذا وذاك تكون المدرسة البادرية قد ساهمت إلى حد ما في إذابة مشاعر التعصب الفقهي التي كانت شائعة في الفترة ما قبل القرن السابع الهجري. كما عززت روح الوحدة المتجردة عن الحقد بين الطوائف والمذاهب الإسلامية.

لا سيما أن هذه المدرسة ومثيلاتها قد خلقت وحدة ترابط بين طلابها ورواد العلم فيها من الدارسين والمدرسين. وخاصة أولئك الذين كانوا يؤهلون أنفسهم بعلومها لتبوء المناصب الوظيفية الراقية في البلاد كالتدريس والخطبة والقضاء والكتبة والحسبة.

(٢٧٥) الشطي: المصدر السابق ص ٢٧٨.

(٢٧٦) البيطار: حلية البشر ١/٣٣.

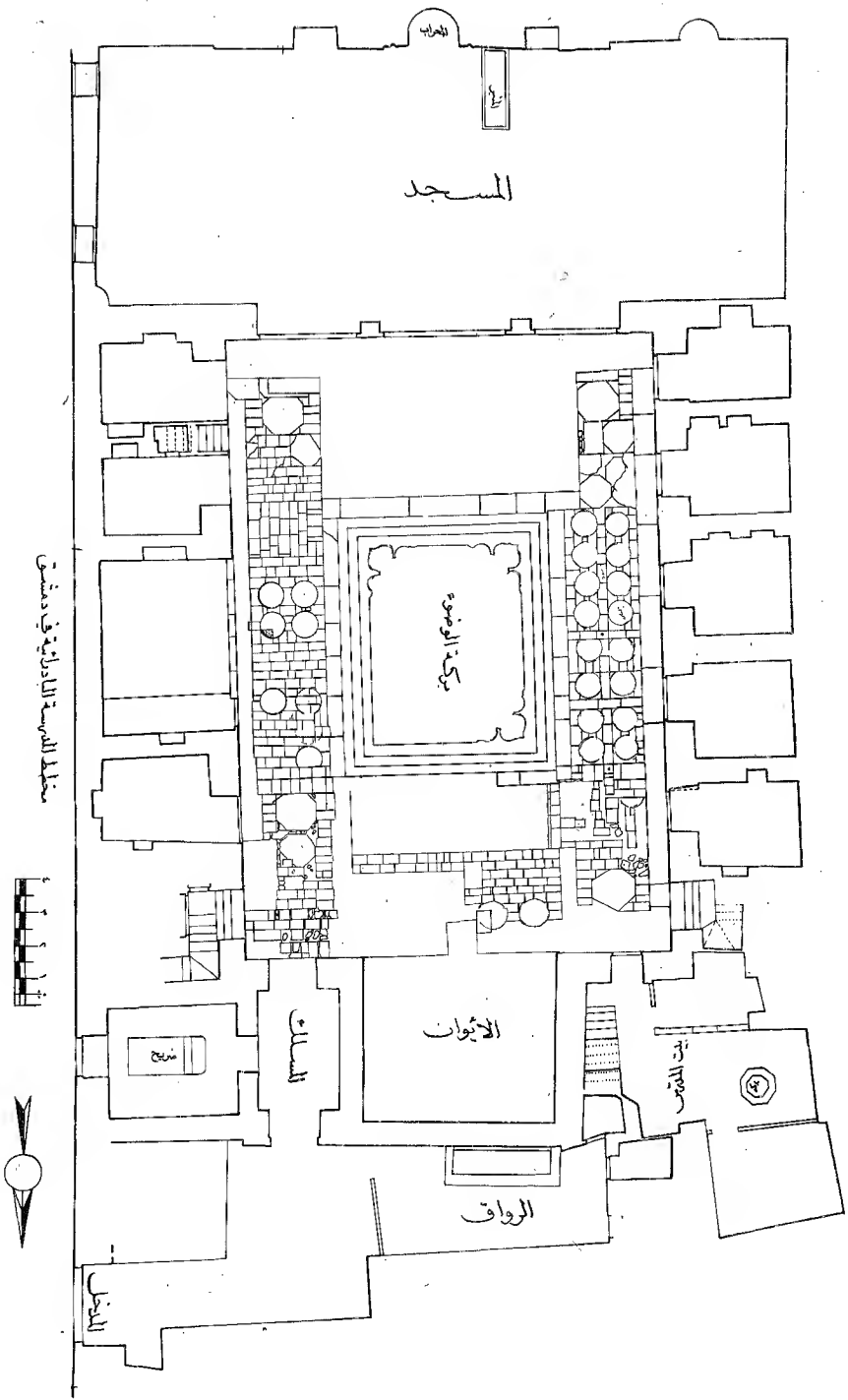
(٢٧٧) الشطي: المصدر السابق ص ٣٠٢.

(٢٧٨) صالح فرفور: الدر المنثور ص ١٥، الشطي: أعيان دمشق ص ٣٠٥.

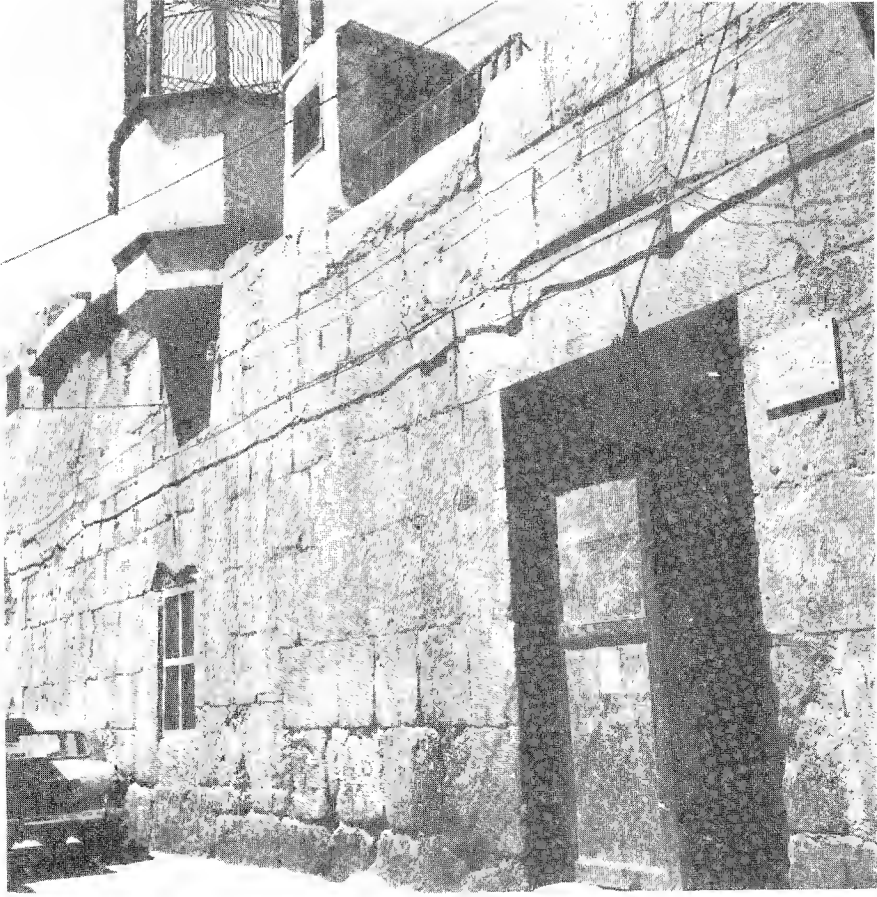
(٢٧٩) الشطي: نفس المصدر ص ٣٤٤ و ٣٨٥.

كما أن المدرسة ساهمت في خلق وحدة فكرية بين الطلاب الغرباء المجتمعين في فنائها أو في ايوان دراستها أو في مسجد صلاتها.

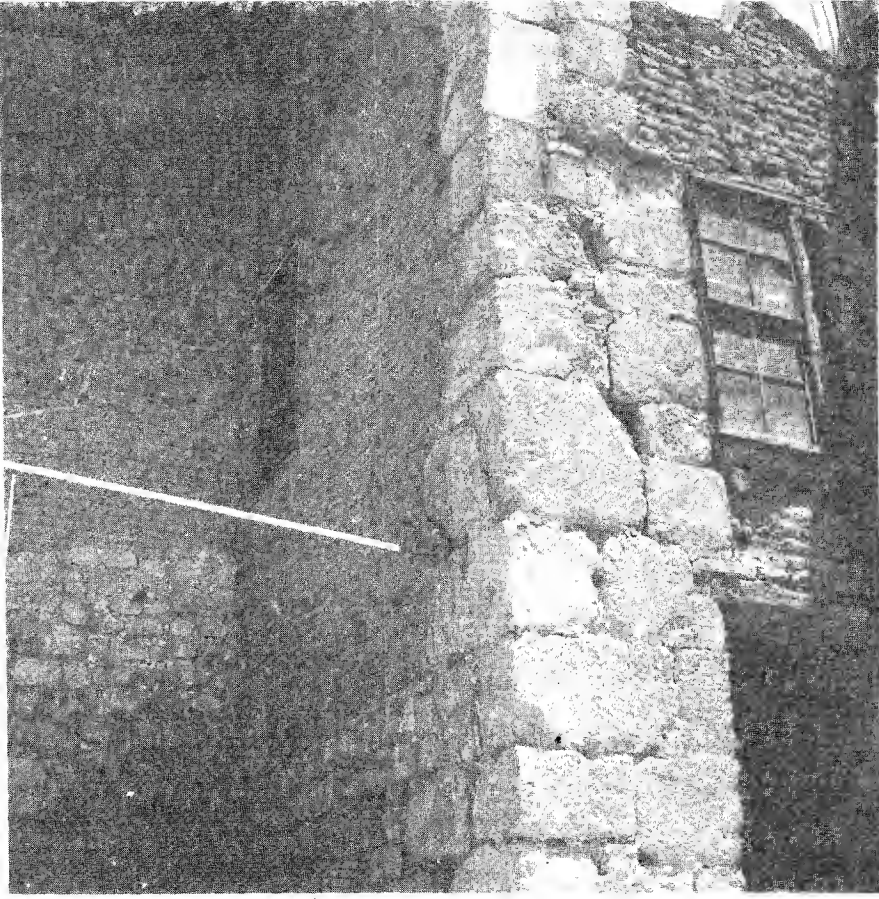
لذلك أصبحت المدرسة البادرية خصوصاً في القرنين السابع والثامن وحتى منتصف القرن التاسع الهجري مؤثلاً لكثير من العلماء والمدرسين والطلاب ووسيلة لتبادل الثقافة الدمشقية مع أقطار الوطن العربي والإسلامي وبهذا يمكننا القول ان المدرسة البادرية أدت رسالتها الدينية والعلمية بإخلاص بالاضافة إلى غرس القيم السامية في نفوس الطلاب والعمل المثمر في تعويدهم على التمسك بفضائل المعرفة وآدابها. بحيث جعلت هذه المدرسة وغيرها من مدارس دمشق أثراً خالداً في نفوس العرب والمسلمين حتى يومنا هذا.



مخطط المدرسة المارونية في دمشق



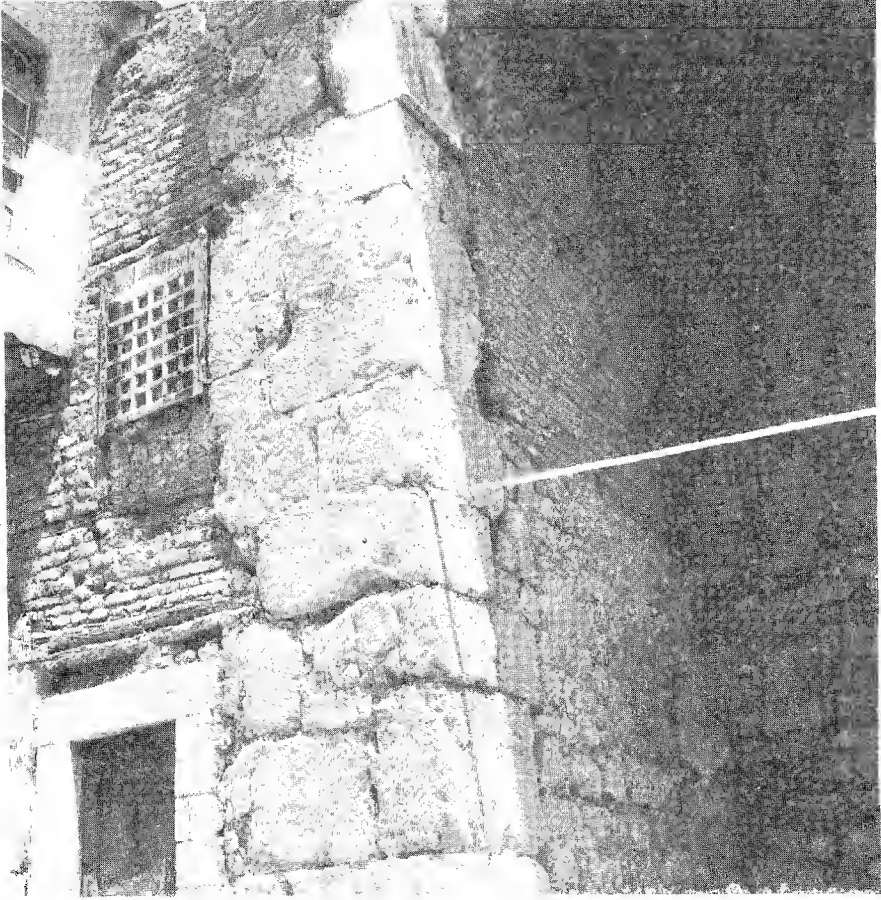
صورة لباب المدرسة الرئيس من الخارج.
ويظهر في الصورة أيضاً
جزء من المأذنة



الجزء الأيسر من إيوان المدرسة.

ويظهر في الصورة أيضاً

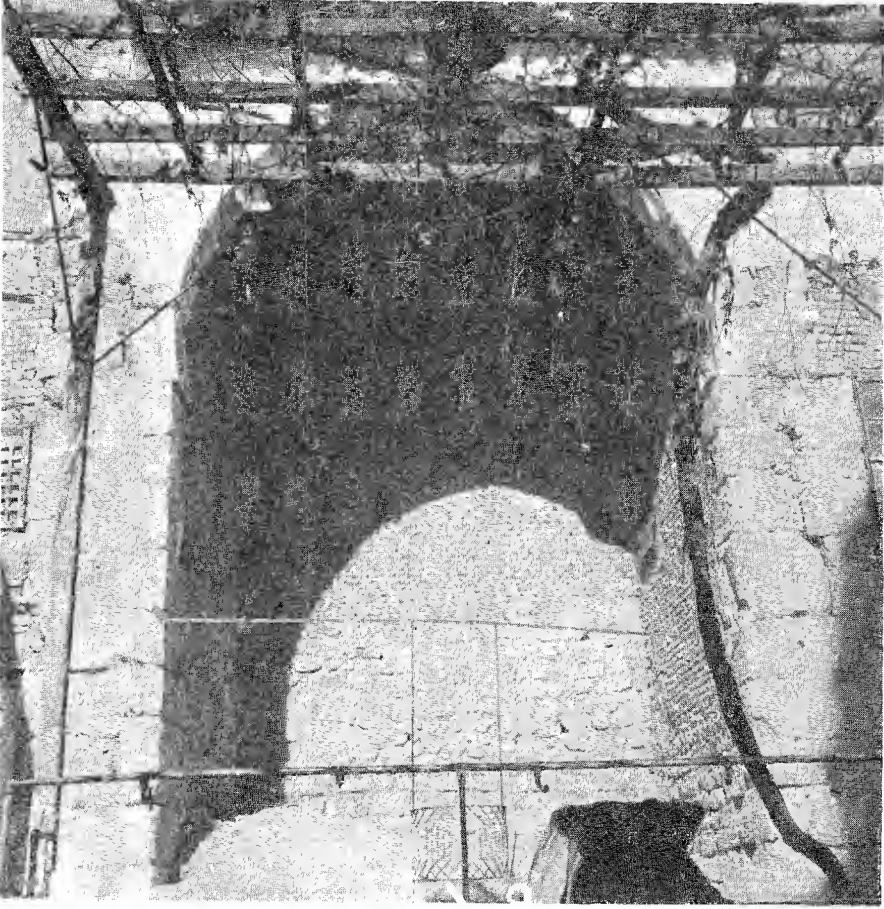
جزء من الباب المعروف بالأيوبي



الجزء الأيمن من إيوان المدرسة .

ويظهر في الصورة أيضاً

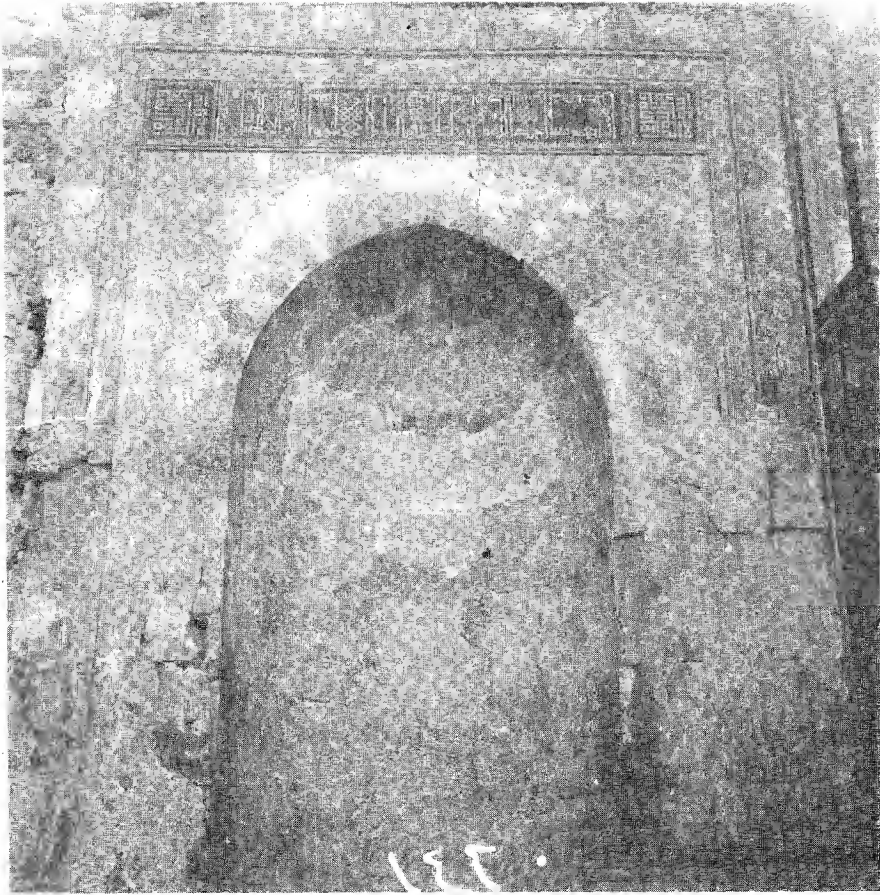
جزء من بيت مدرس المدرسة



أيوان المدرسة



جزء من أرضية صحن
المدرسة وبركة الوضوء



محراب مسجد المدرسة